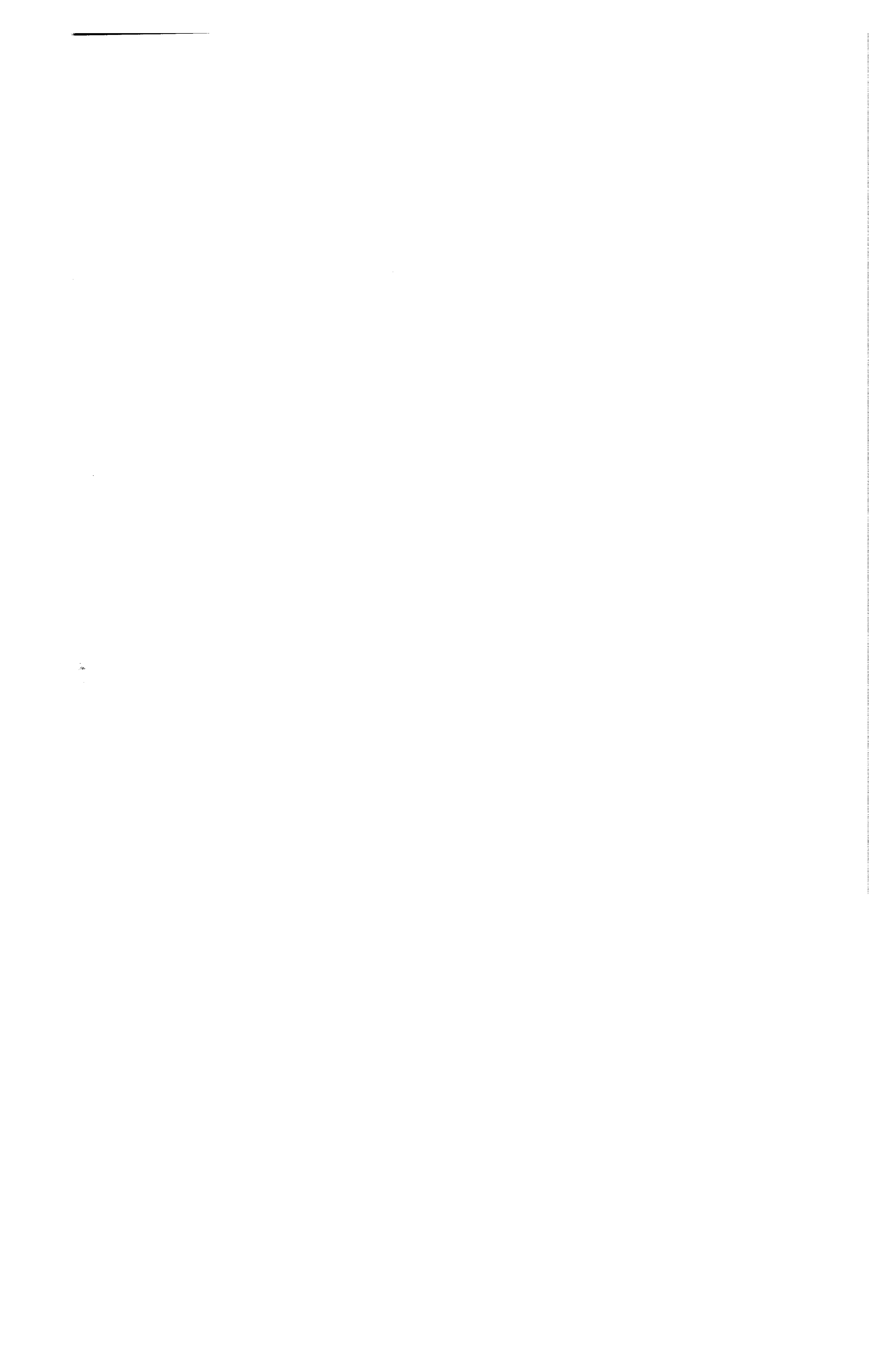
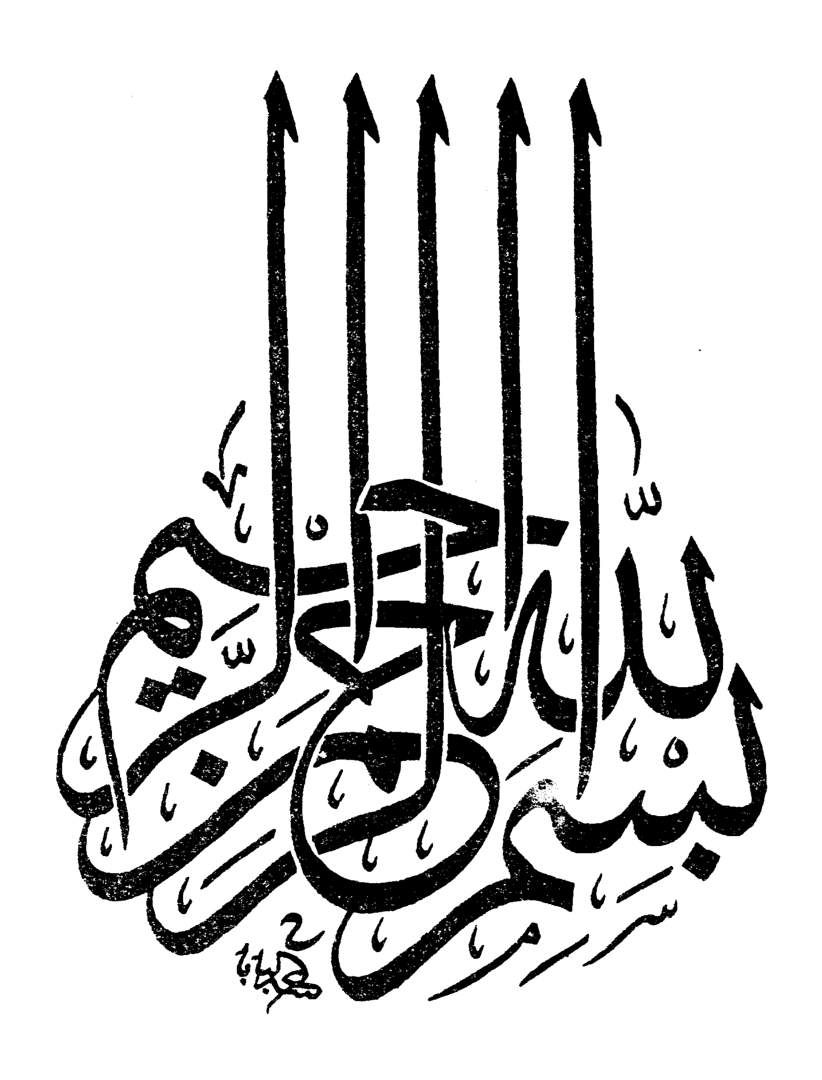
من عيون الأدب العربى

فى العصر الأموى

الأستاذ الدكتور
طلعت صبح السيد

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م





المقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وأصحابه ومن والاه.

وبعد:

فليس ينكر أحد أن دراسة النصوص الأدبية عمل فنى يعد ذا درجة كبيرة للغاية فى حقل الدراسات الأدبية والنقدية، وهذا العمل يتطلب قدرات خاصة، كما يتطلب وسائل وأدوات من العلوم والفنون حتى يؤدى على وجهه الصحيح.

وليس ينكر أحد كذلك أن أغراض الشعر واتجاهاته فى عصر بنى أمية قد أخذت فى التعدد والاتساع، وهى مع هذا التعدد والاتساع تتصل بالعصر اتصالاً مباشراً، أو إن أردت الدقة فقل إنها نتاج طبيعى للعصر وتقلباته وصراعاته، وقد نقلت لنا صورة كاملة لما كان فى العصر، صورة قد لا نجدها مكتملة فى كتب التاريخ والسير.

والكتاب يضم طائفة من عيون الأدب العربى فى العصر الأموى، بين شعر ونثر، وأفضنا فى تحليل وشرح هذه النصوص ، وناقشنا ما فيها من أفكار ، وأساليب ، وصور بيانية ، وما إلى ذلك مما يعول عليه المعاصرون من عاطفة وموسيقى وغيرها.

وقد حرصنا على أن يقوم نهجنا فى هذه الدراسة على الاهتمام بالصراعات السياسية والاضطرابات الحزبية؛ ذلك لأن عصر بنى أمية كان عصر أحزاب سياسية حقيقية، لكل منها مذهبه، وآراؤه،

ونظرياته ، ولكل منها كذلك وسائله في الدعاية لأفكاره ، وتحقيقها ، والتطور بها من نطاق الرأى والفكر إلى ميدان القتال والحرب أحيانا.

ثم إن اهتمامنا بالصراعات السياسية أمر يعين على التوضيح، وفى ذلك كله تسديد للدراسة ، يؤيد ذلك أن شعراء العصر لكل منهم نزعته الخاصة لحزب أو فريق بعينه ، ولكل منهم كذلك دعوة فى شعره لهذا الحزب أو ذاك مدحا وهجاء.

وقبل أن ننهى المقدمة يجدر بنا أن نقول إن تسليط الضوء على النصوص الأدبية يعنى بشكل أو بأخر الاحتفال بعلوم شتى ، وليس كالنصوص الأدبية من شعر ونثر شئ من الموضوعات والمواد يمكن الإنسان من فهم اللغة العربية وتذوقها ، وإدراك ما أودعها الله من أسرار وجمال ودقة.

وحسب اللغة العربية أنها لغة القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة ، وحسب النص الأدبى مكانة وشرفا أن يكون مفتاحا لفهم اللغة وتذوقها ؛ فالعناية بالنصوص الأدبية إذا من أهم الوسائل التى تعرف المسلم بمقاصد كتاب الله، وسنة رسوله المصطفى ، صلى الله عليه ، وعلى آله وصحبه وسلم.

وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنبت.

أ.د / طلعت صبح السيد

المنصورة / رمضان ١٤٢١ هـ
ديسمبر ٢٠٠٠ م

تمهيد – ويتناول

أولاً : مدخل إلى دراسة العصر الأموى

ما أن انقضى عهد عمر بن عبد الخطاب ـ رضى الله عنه ـ حتى علت على الساحة الإسلامية أسباب جعلت الهوة تتسع بين المسلمين ، وعصفت فرقتهم بالوحدة التى نعموا بها فى العهد الأول للإسلام ونشأت من ثم الأحزاب السياسية، وأخذت تستكمل أسباب قوتها ومعالم شخصيتها.

ولا شك أن تاريخ الدولة الأموية يمثل صورة حقيقية لهذا الصراع الحزبى فقد اختلفت فى هذه الدولة الأهواء والأغراض، وأصبحت ميداناً تتصارع فيه الأحزاب، وكانوا معاول هدم فى بناء الدولة منذ فجر حياتها وحتى أفول شمسها.

فالخوارج يكفرون الدولة الأموية، والشيعة يخرجون عليها تحت شعار الدعوة لآل البيت، ويقومون من أجل ذلك بالحروب والثورات التى هزت أركان الدولة وأضعفت كيانها، وكانت من أهم العوامل فى القضاء عليها. والزبيريون يقفون من الدولة موقف العداء السافر ويسيطرون على معظم ولاياتها فترة من الزمان.

(١) الأمويون

بعد مقتل عثمان بن عفان بويع على بن أبى طالب بالخلافة، ولم تكن الخلافة آنذاك مركزا يحسد عليه صاحبه لما كان يحيط به من أهوال ومتاعب وهذا هو السبب فى رفض رجال الشورى لها، حتى لا يكون هناك مجال لسوء الظن بهم.

ولم يكد على يتولى الخلافة حتى واجهته العقبات وأحاطت به المتاعب فقد طلب إليه جماعة من أولى الأمر -وعلى رأسهم معاوية بن أبى سفيان- أن يحاكم هؤلاء الثوار الذين قاموا بقتل الخليفة عثمان بن عفان[١].

وتمادى معاوية فى دعواه، فأخذ يثير الناس، ورفض أن يبايع عليا وتمكن أن يحرك المشاعر ويثير الخواطر، وكان قد حشد لذلك كل ما لديه من أساليب الدهاء، وألقى فى أذهان الناس أنه إنما يطالب بثأر عثمان من قاتليه وأن عليا قد اشترك فى هذا الجرم وأوغل فيه.

فى هذا الجو بدأ على يوجه معظم اهتمامه إلى معاوية فهو العدو الألد الذى لا يزال يحكم بلاد الشام ويتجاهل أمر الخليفة بعزله، ولا يقر أوامر الخليفة ولا يعترف بها، وبدأ الصراع فى موقعة الجمل (٣٦ هـ - ٦٥٦ م) وقتل فيها طلحة والزبير وتم النصر لعلى.

وسرعان ما تجدد الصراع بين على ومعاوية فى موقعة صفين (٣٧ هـ - ٦٥٧ م) ، وكاد النصر يتحقق لعلى لولا الحيلة التى لجأ إليها عمرو بن العاص قائد جند معاوية فقد رفع جنده المصاحف، وكان التحكيم وخلع على وتثبيت معاوية[٢].

وقد استطاع معاوية أن يستأثر بالخلافة ويقرها فى البيت الأموى وبخاصة بعد أن اضطر الحسن بن على إلى التنازل عنها وإيقانه أنه لا طاقة له بنزال معاوية وجنده، فصالحه على أن يكون الأمر بعد وفاة معاوية شورى بين المسلمين يولون عليهم من أحبوا، وقد وافق معاوية على ذلك واجتمعت الكلمة عليه[٣].

---

(١) انظر الدولة الأموية فى الشرق د.الطيب النجار :١٣ وما بعدها .ط٣ .

(٢) راجع تاريخ الطبرى جـ٥ والكامل لابن الأثير جـ٣ .

(٣) تاريخ اليعقوبى :٥٤/٢ .والبداية والنهاية لابن كثير ١٦/٨ .

وهكذا قامت الدولة الأموية (٤١ هـ - ٦٦١م)، وبويع معاوية في الكوفة سنة ٤١ هـ على مشهد من الحسن والحسين[١]. لكنه لم يلبث إلا قليلا حتى ابتدع نظاما جديدا في الخلافة، فأخرجها من دائرة الشورى والانتخاب إلى التعيين والوراثة وذلك بإعلانه البيعة لابنه يزيد ، وشرع يوطد الملك له ويعهد إليه بولاية العهد في حياته.

واتخذ معاوية من مدينة دمشق مركزا للخلافة الأموية وحاط نفسه بأبهة الملوك وجلالهم ، وعلى الرغم من إبقائه على النظام الإداري القديم إلا أنه أول من اصطنع الموالي والنصارى في المناصب[٢].

وأخذ بنو أمية ودعاتهم يحملون الناس على الطاعة لهم وعلى نصرتهم ومقاتلة من يتمرد على سلطانهم .. وكانت حجتهم في ذلك أنهم خلفاء الله ورسوله.

وقد جهر بهذا زياد والي معاوية في خطبته البتراء بالبصرة فقال :[٣] "أيها الناس ، إنا أصبحنا لكم سادة ، وعنكم زادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا".

وكان على الدولة الأموية - لتوطيد دعائم ملكها - أن تستميل الناس إليها ، فتسلح بنوها بالسيف وباللسان وبالقلم وبالعطاء ، وتسلحوا فيما تسلحوا به بسياسة التفريق والتمزيق وبعثوا العصبية القبلية والعصبية الجنسية أو الشعوبية[٤].

---

(١) مروج الذهب: ٣٦/٢ .المطبعة البهية المصرية ١٣٤٦ هـ .

(٢) انظر تاريخ الدولة العربية د.عبد العزيز سالم :٣٤٦ .مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر.

(٣) البيان والتبيين :٦٤/٢ .نشر مكتبة الخانجي.

(٤) انظر مروج الذهب :٢١/٢ .

ولعل أظهر ما يمثل دهاء معاوية وسعة عقله أنه عــرف كيـف يتخذ من العصبية حصنا منيعا يحصن بــه ملكــه وملـك أولاده مـن بعده ، فهل كان الصراع بين الزبيرية (أتبــاع عبـدالله بـن الزبـير) والأموية إلا صراع المضرية واليمانية[١].

وجدير بالذكر أن هذه العصبية كانت نذيرا بخطر لم يلبث أن استشـرى في الدولة الأموية، فهدم أركانها، وعجل بسـقوطها، فـالأمويون - وإن استنصروا بالعصبية على خصومهم - لم يلبثوا إلا قليلاً حتى اسـتنصر بها بعضهم على بعض..

وطبيعـي ألا يسـلم بنـو أميـة بمسـلكهم هـذا مـن إثـارة وإغضاب ، هذا إلى ما تجره تلك العصبية من شرور ومخـاطر. وقـد تحقق ذلك، فسرعان ما صارت العصبية مرضا في المجتمع، ونجمـت عنها فتن وثورات آذنت بنهاية الدولة وظهور الدعوة لبني العباس.

وقد أنذر نصر بن سيار والي خراسان هشام بـن عبـد الملـك بقوله[٢]:

أرى خلل الرماد وميض نار	ويوشك أن يكون لها ضرام
فـإن النـار بالعودين تذكى	فإن النـار بالعودين تـذكى
فإن لم تطفئوهـا تجن حربا	مشمـرة يشيب لهـا الغلام
أقول من التعجب ليت شعري	أأيـقـاظ أمـية أم نيـام
فإن يـك قومنا أضحوا نياما	فقل قومـوا فقـد حان القيام
ففري عن رحالك ثم قـولي	على الإسلام والعرب السلام

---

(١) المقارنة بين الشعر الأموي والعباسي في العصر الأول د.عزيز فهمي ٤٤. دار المعارف.
(٢) مروج الذهب :٢/٢٥ . والعقد الفريد :٥/٢٤٠ .

وقد أتيح لبنى العباس أن يبثوا دعاتهم فى هذا المجتمع الممـــزق الساخط، فأخذوا يشهرون ببنى أمية، واســتغلوا حنـق بعـض القبـائل المتزايد على بنى أمية .. وفى وسط هذا المجتمع الذى تصطــرع فيـه أمواج الفتن ويموج بالخلاف والانقسام، لم تكن إلا جولـــة أو جـولات حتى تهدم صرح بنى أمية وقام صرح بنى العباس.

(٢) الخـوارج

عرفت الخوارج بألقاب عديدة [١]، وأشــهر هـذه الألقـاب هـى "الحرورية" و"المحكمة" و" المارقة " و" الشراة ".

وأشهر اسم عرف به هؤلاء الناس هو الخوارج، وقد صار علمــاً مميزاً لهم من غيرهم من الفرق الإسلامية ، ولعل شهرته على الأسـماء الأخرى جاءت من اتفاق الجميع علـى اسـتعماله وإشـاعته ، ثـم إن الخوارج أنفسهم تمسكوا بهذا الاسم واعتزوا به ، لأنه يمثل فى نظرهـم الخروج فى سبيل الله.

وقبل موقعة صفين كان الخوارج مــن أنصـار علـى وشـيعته المقربين ، وكان لهم فى الكفـاح مـع علـى جـهاد مـبرور وبـلاء مشكور ، ولكن بعد أن استقر الرأى على قبول التحكيم نفروا من علـى وخرجـوا عليـه وتغـير رأيـهم فيـه، فسـموا منـذ ذلـك الوقـت بالخوارج ، لخروهم كما قال الشهرستانى[٢]على الإمام الحق الذى اتفقت عليه الجماعة.

---

(١) الخوارج فى العصر الأموى د.نايف معروف :١٨٧ وما بعدها.

(٢) الملل والنحل صــ١٠٥ مطبعة مخيمر ١٩٥٦ م. وأدب الخوارج ، سهير القلماوى صــ٥ لجنة التأليف والترجمة والنشر.

وتقوم نظريتهم فى الخلافة على أساس أن الخليفة يجب أن يكــون باختيار حر من المسلمين ، وإذا تــم اختيــار الخليفــة صــار رئيــس المسلمين ، ويجب أن يخضع خضوعا تاما لمــا أمــر الله وإلا وجــب عزله.

ولا شك أن معاوية كان أبغض إلى الخوارج من على ، لما كــانوا يعتقدونه فيه من العبث بأموال المسلمين، وفوق ذلك فهو لم يصل إلـــى الخلافة عن إجماع من المسلمين ، وإنما وصل إليها على جســـر مــن المكر والدهاء.

وقد حكم الخوارج بتكفير على ومعاوية ومـــن ناصرهمـــا بعـــد التحكيم، لأنهم حكموا بغير ما فى كتاب الله ، إذ عدلوا عــن تحكيـم الله إلى تحكيم الناس وأوجبوا الخروج عليهم وقتالهم ، ولذلك أشادوا بعبـــد الرحمن بن ملجم قاتل على بن أبى طالب ، وقال فيه قائلهم :[١]

يا ضربة من منيب ما أراد بها ❁ إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا

إنـــى لأذكـــره يـــوما فأحسبه ❁ أوفـــى البريـــة عند الله ميزانـــا

ولعل خير ما يصور عقيدتهم ما قاله واحد منهم وهو "أبو حمـــزة الخارجى" فى وصف أصحابه. يقـــول : "شـــباب والله مكتـــهلون فـــى شبابهم ، غبية عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلـــهم ، أنضـــاء عبادة وأطلاح سهر، ينظر الله إليهم فى جوف الليل منحنيـــة أصلابـــهم على أجزاء القرآن ، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنـــة بكـــى شـــوقا إليها ، وإذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه.

---

(١) الملل والنحل ١٥٩/١ .

موصول كلالهم بكلالهم : كلال الليل بكلال النهار قـــد أكلــت الأرض ركبهم وأيديهم ، وأنوفهم وجباههم ، واستقلوا ذلك فى جنب الله ، حتــى إذا رأوا السهام قد فوقت ، والرمـــاح قــد أشــرعت ، والســيوف قــد انتضيت ، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت ، اســتخفوا بوعيــد الكتيبة لوعد الله ، ومضى الشاب منهم قدما حتى اختلفت رجــلاه علــى عنق فرسه ، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه فأســرعت إليــه ســباع الأرض ، وانحطت عليه طير السماء فكم من عيش فى منقــار طــائر طالما بكى صاحبها فى جوف الليل من خوف الله وكم من كــف زالــت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها فى جوف الليل بالسجود لله"(١).

وقد ظلت الخوارج على رأى واحد من لدن فارقوا عليا إلــى أن كان من أمرهم ما كان مع ابن الزبير وتفرقهم عنه .. فبعـــد أن كــانوا كتلة واحدة يجتمعون على رأى واحد، شجر الخلاف بينهم، وأصبحــوا فرقا يتبرأ بعضها من البعض الآخر(٢).ومـــن هــذه الفــرق الأزارقــة والصفرية والنجدية والإباضية والبيهسية.

هذا ولم يقف انقسام الخوارج عند هذا الحد، بل جاوز انقســامهم الحدود الاجتهادية المألوفة.. وهذا إن دل على شئ فإنما يــدل علــى أن قضية الاجتهاد عندهم لم تكن قد توضحت معالمها أو حـــددت شــروط ممارستها.

---

(١) البيان والتبيين :١٢٥/٢ .

(٢) انظر الكامل للمبرد :٨٩١/٣ .

أما ما كان من الخوارج فى تحركاتهم ضد الدولة الأموية، وما كان من الأمويين فى مقاومتهم، فلا شك أن الخوارج لم يكونوا راضين عن المعاهدة التى أبرمت بين الحسن ومعاوية، وتمنوا القضاء على هذه الدولة ، إلا أن الاستقرار الذى نعمت به الدولة الأموية بعد تنازل الحسن عن الخلافة يعد العامل الأول فى الحد من خطورة الخوارج وتقليص نفوذهم ، كذلك لا نغفل ما كان لولاة العراق من دور حيال الخوارج ، فقد استطاعوا أن يحولوا دون تصاعد أمرهم طوال عهد معاوية[١].

ومن ينظر فى تاريخ الخوارج يجد أنهم لم يكفوا لحظة واحدة عن محاولاتهم إسقاط حكم بنى أمية ، إلا أنهم كانوا يحاربون خصومهم فى جبهات مختلفة ، ولو أتيح لهذه الفرقة أن تعمل تحت إمرة واحدة ، ووفق خطة متكاملة لتجنبت الكثير من الهزائم التى منيت بها ، ولاستطاعت بالتالى تحقيق الكثير من التطلعات السياسية التى كانت تتطلع إليها.

(٣) الشيعة

لم تظهر الشيعة بالمعنى الحزبى إلا فى عهد عثمان بن عفان حينما قام عبد الله بن سبأ اليمنى اليهودى الأصل بإظهار التعصب لآل البيت ووضع أسس مذهب التشيع ، والانتقال فى البلاد الإسلامية يحرض على عثمان ومعاوية ويظهر مساوئ بنى أمية .

---

(١) يلاحظ البداية والنهاية :١٤/٨ . القاهرة ١٣٤٨ هـ .

ولما قتل عثمان بن عفان ، عرض الثوار الخلافة على على بن أبى طالب فأبى ، ثم استعانوا عليه بالأنصار والمهاجرين فقبل ، وأصبح خليفة المسلمين ببيعة اشترك فيها من كانوا بالمدينة من أهل الكوفة والبصرة ومصر ومن كانوا بها من المهاجرين والأنصار. وقد رفض بيعة على كثير من أنصار عثمان وفى مقدمتهم السيدة عائشة رضى الله عنها ، ثم انضم إليها طلحة والزبير ، وما لبثوا إلا قليلا حتى تجمعوا وقصدوا قتال على وصحبته فى البصرة [١].

وقد التقى الفريقان فى موقعة الجمل وقتل طلحة والزبير ،وبعد المعركة ارتحل على إلى الكوفة فبايعته ، وبدأت الرسل تسفر بينه وبين معاوية فلم يقدر لها النجاح ، ثم كانت موقعة صفين والتحكيم [٢].

وقد انتقل الإمام على إلى العراق واختار الكوفة مركزا له وينبوعا لدعوته وعاصمة لخلافته ، وصارت العراق والكوفة بخاصة موئل الشيعة ومنبع التشيع ، ومصدر الثورات على بنى أمية .

وقد شق المحكمة[٣] عصا الطاعة على على ، ولم يبق إذن حوله إلا أهل الكوفة الذين أصبحوا كلهم حزبه فى حرب معاوية وحزبه ، ثم كان من تثاقلهم عن نصرة على حتى قتل وليس له شيعة فى العراق كشيعة معاوية فى الشام .

---

(١) انظر الطبرى : ١٦٨/٥ وما بعدها ، المطبعة الحسينية بمصر .

(٢) انظر الدولة الأموية د. الطيب النجار : ١٩ وما بعدها .

(٣) انظر فجر الإسلام ، أحمد أمين : ٢٦٦ وما بعدها . النهضة المصرية ط١٢ ١٩٨٧ .

وبعد مقتل على أصبح التشيع مقصورا على أتباعه مع تفاوت فيما بينهم وقد ندم هؤلاء على تفريطهم فى مقتل على ، فأخذوا يغالون فى حبه وتعظيمه وإكباره عزاء لما قدموا له من الإساءة فى حياته ، وعلى هذا النحو كان عداؤهم لبنى أمية ، فقد ظلوا طوال العصر يستجيبون لكل من يقودهم للثورة عليهم[١].

ولما قتل الإمام على راجت الدعوة لابنه الحسن وبايعه أهل الكوفة وأخذ يستعد لقتال معاوية ، لكن معاوية - وكان أشد ميلا إلى الحرب - قد سار إليه ، فوجد الحسن أنه لا طاقة له بنزال معاوية وبخاصة بعد خذلان قومه له فتصالح معه على أن يتنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية على أن يكون الأمر شورى بعد معاوية ، وغادر الحسن الكوفة إلى المدينة وعاش بها حتى مات سنة ٤٨ هـ - ٦٦٨م[٢].

وأخذ الأمويون يطيحون بأهل الشيعة حتى ضعف أمرهم وظلوا أيام معاوية يقصرون تشيعهم على النظر والعقيدة لا على الحروب والثورات ، إلى أن قتل الحسين بن على وبعض أصحابه ، فأخذ الشيعة يتحمسون لنصرة مذهبهم ، وأعلنوا التمرد فى عهد عبد الملك بن مروان سنة ٦٥ هـ فى حركة سميت حركة التوابين ، فلما كان عهد هشام بن عبد الملك خرج زيد بن على زين العابدين بن الحسين .. إلا أن كل هذه المحاولات باءت بالفشل وبقيت الشيعة مذهبا عقائديا إلى أن قامت دولة بنى العباس[٣].

---

(١) انظر الدولة الأموية فى الشرق د. الطيب النجار ص٧٧ وما بعدها .

(٢) الكامل لابن الأثير : ١٧٥/٣ . والبداية والنهاية ١٤/٨ .

(٣) انظر أعيان الشيعة ، السيد حسن العاملى ج١ص١٦ - ١٩ مطبعة ابن زيدون دمشق ١٣٥٤د .

وتقوم عقائدهم فى أصولها على فكرة الإمامة والإمام ، وهم يجمعون بفرقهم المختلفة على مشايعة على وإمامته ، ويرى جمهور الشيعة نفس الرأى فى أولاد على وقد وجدت هذه العقيدة رواجا شديدا وذيوعا واسعا بين كل من تشيع للإمام على[١].

ولا يتسع المقام لإحصاء المذاهب والفرق الشيعية وتتبعها ، وبيان معتقدات كل منها وما بينها من خلاف ، فكل ما يعنينا هو إبراز الشيعة كحزب وبيان شأنها السياسى ، وما كان لها من نضال مع الفرق الأخرى امتد أثره إلى الشعر السياسى .

وقد قرن أدب الشيعة بحب أهل البيت ، وعللوا لهذا الحب بأنة تابع لحب الله تعالى ، ولذلك بكوا على أئمتهم بكاء حارا ، وحملوا على خصومهم واتهموهم بالجور والاغتصاب والحيدة عن الدين .

وقد مزجوا السياسة بالدين ، فشعرهم يجمع بين الحرب وفكرة السياسة التى دعتهم إلى الحرب ، حتى خرجت أشعارهم صدى لحروبهم مع الأمويين ، واقرأ أشعار الكميت بن زيد الأسدى فستجدها تصور لك حروب الشيعة وبطولة أبطالها وشجاعتهم ، ثم تجد الدموع المسكوبة حزنا على مقتل أئمتهم فى ظلم وعدوان .

---

(١) انظر توضيح ذلك : الفرق الإسلامية د.نعمان القاضى : ١٤٢ وما بعدها .

(٤) الــزبــيــريــون

ينسب هذا الحزب إلى زعيمه عبد الله بـن الزبـير بـن العـوام الصحابى ابن الصحابى ، وقد كان ابن الزبير رجلا طموحا يحب المجد والسلطان ، وكانت الخلافة أملا من آماله ولكنه لم يفكر فيـها تفكـيرا فعليا إلا بعد أن أعلن معاوية البيعة لابنه يزيد فأخذ يدعو لنفسـه بمكـة سنة (٦١ هـ - ٦٨٠ م) وبايعه الناس فيها بالخلافة .

ومنذ ذلك الوقت ولد حزب جديد من أحـزاب المعارضـة التـى قامت فى وجه الأمويين وهو حزب الزبيريين .. وكـان هـذا الحـزب شديد الخطورة على الدولة الأموية ، ولو أن زعيمه قد أحسن اسـتغلال الفرص التى أتيحت له لاقتلع هذه الدولة من أساسها ولكنه كانت تواتيـه الفرص فيضيعها الأمر الذى أدى إلى أفول نجمـه بعـد زمـن غـير طويل(١).

وقد اعتمد الحزب الزبيرى فى الدعوة إلى عبد الله بـن الزبـير على أمور منها أن الخلافة حق لقريش وحدها كما أعلن ذلك أبو بكـر يوم الثقيفة ، وعبد الله أكفأ من يتولاها بعد أن مات معاويـة ، يضـاف إلى ذلك أن عبد الله يمت بصلة إلى رسول الله -صلى الله عليه وسـلم- وإلى ذلك فهو ابن أسماء بنت أبى بكر ، وكان فى المدافعين عن عثمـان بن عفان وقت الحصار .. وهو رجل اشتهر بالتقوى والصلاح ، علـى حين اشتهر منافسوه من بنى أمية بالخلاعة والمجون مما أسخط جمـهور المسلمين عليهم (٢).

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير : ٣٤٨/٤ وما بعدها .

(٢) بتصرف من أدب السياسة فى العصر الأموى د. الحوفى ١١٥،١١٦ .

وقد جهر عبد الله لنفسه بالدعوة بعد مقتل الحسين ، فـأخذ أهـل المدينة يثورون على الأمويين ، وطردوا مروان بن الحكم وسائر بنـى أمية سنة ٦٣هـ ، فأرسل يزيد جيشا بقيادة مسلم بن عقبة إلى المدينـة وكان قتال شـديد انتصـر فيـه مسـلم ، وقتـل عـددا كبـيرا مـن خصومه ، وأجبر الناس على البيعة ليزيد [١] على أنـهم خـول لـه أن يحكم فى دمائهم وأموالهم وأهليهم من شاء ، فمن امتنع من ذلك قتله .

ولم يلبث ابن الزبير أن انضمـت أغلـب الأمصـار الإسـلامية إليه ، فقد استجاب أهل البصرة له ، وأخذوا يطلبـون منـه أن يرسـل إليهم أميرا من قبله يأخذ البيعة له ، وكذلك كان الحـال فـى الحجـاز واليمن ومصر والشام .. وهذه كلها بوادر تدل على أن النصـر يوشـك أن يحالف ابن الزبير ، وزاد من تلك الخطورة أن بنى أمية بالشام كـانوا منقسمين على أنفسهم ، ولم يتفقوا على رأى حاسم فـى أمـر الخليفـة الجديد بعد معاوية بن زيد ، إلا أن ابن الزبير لم يعرف كيـف يسـتغل هذه الفرصة الطيبة ولو عرف لاضطـر الأمويـون إلـى الإذعـان والتسليم وغدا بن الزبير بذلك خليفة المسلمين غير منازع .

ولم يطل الخلاف والشقاق الذى نشب فـى حـزب بنـى أميـة فسرعان ما أفاقوا لأنفسهم واجتمعت كلمتهم وولوا مـروان بن الحكـم الخلافـة وأصبحـت الشام مسرحا لحزبين كبيرين حـزب الأمويـين وحزب الزبيريين وقد اقتتل الفريقان قتالا شديدا فى موقعة "مرج راهـط"

---

(١) الكامل لابن الأثير : ١١٨/٤ .

وهزم فيها أنصار الزبير سنة ٦٤هـ ، مما آلم النفوس وترك فيها جرحا لا يندمل أثره ، وفى ذلك يقول زفر بن الحارث من أنصار الزبيريين [١] :

أرينى سلاحى لا أبالك إننى
أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا
ففى العين منجاة وفى الأرض مهرب
إذا نحن رفعنا لهن المثانيا
فلا تحسبونى إن تغيبت غافلا
ولا تفرحوا إن جئتكم بلقائيا
فقد يَنْبُت المرْعى على دمن الثرى
وتبقى حزازات النفوس كما هيا
لعمرى لقد أبقت وقيعة راهط
لحسان صدعا بيننا متنائيا

وظل ابن الزبير فى صراع مع الأمويين إلى أن لاحت نهايته على إثر هزيمة جنده فى العراق ، إذ أسرع عبد الملك وأرسل قائده "الحجاج بن يوسف الثقفى" فى جيش إلى مكة للقضاء عليه ، فحاصرها وضرب الكعبة بالمنجنيقات فاحترقت (٧٣هـ-٦٩١م) ، واضطر أنصار ابن الزبير إلى التخلى عنه ، وظل يقاوم إلى أن قتل سنة ٧٣هـ ، فاستراح كل من الأمويين والخوارج من هذا الحزب المناوئ .

(١) الطبرى : ٤١/٦ . والكامل لابن الاثير : ١٥٢/٤ .

وشعر الزبيريين سجل واضح لأحداثهم ، فهو يدعو إلى الثـــورة على بنى أمية ، ويتمنى الخلاص منهم ، وكثيراً ما ينذرهم ويريش لـــهم سهام الوعد والوعيد والتخويف والتهديد. ومن ينظر فيما تخلـــف عـــن موقعة مرج راهط من شعر لفريقى بنى أمية والزبـــيريين يـــرى مـــدى تمسك كل منهم بعصبيته وإصراره على الانتقام من خصومه ثـــم يـــرى تمسك الزبيريين بالطاعة لابن الزبير، وابتهاجهم به.

ثانيا : تحليـل النصـوص الأدبيـة

تحليل النصوص الأدبية هو تفسيرها، وتحليلها، وتعليلها، وإظـــهار ما فيها من قيمة تمهد السبيل إلى التعرف على مظاهر القـــوة، وأســـباب الضعف فى النص الأدبى.

وهذا العمل وظيفة جليلة الشأن ، عظيمة القدر ، تعـــود بالفـــائدة على النص الأدبى من جانب ، وعلى الأدباء والنقـــاد ، والناشـــئة مـــن جانب آخر ، ومن أجل هذا ينبغى أن يقوم بهذا العمل ناقد أدبى له مـــن القدرة على التذوق نصيب كبير ، وله من القدرة على الحياد فى إصـــدار الأحكام الأدبية نصيب كبير كذلك ، وفوق هذا وذاك لديه موفـــور مـــن العلوم والمعارف ، والثقافات ، التى تتطلبها عملية النقد الأدبى.

وإذا كان المبدع يبذل جهداً فى إبداعه ، فإن النص الأدبى يحتـــاج لتذوقه وفهمه إلى قدرة خاصة وجهد خاص ، وهـــذا يؤكـــد أن تـــذوق الأدب متوقف على القراءة المتأنيـــة ، وعلـــى طبيعـــة خاصـــة فـــى الناقد ، وهذا يدفع بنا إلى الحديث عـــن أدوات النـــاقد ، ومنهجـــه فـــى التحليل والدراسة الأدبية للنص الأدبى.

أدوات الناقد

عرفنا أن النقد يبحث عن الخصائص الفنية ، وأنــه يمــيز القيــم الأدبية فى كل عمل من الأعمال التى يتناولها. وحتى يكون الحكم علــى الآثار الأدبية صحيحا ومقبولا ، وحتى يستطيع الناقد أن يــؤدى فــائدة للحياة الأدبية لا بد أن تكون لديه أدوات تمكنه من أن يؤدى ـ وظيفتــه خير أداء ، ومن هذه الأدوات :

١ - الثقافــة :

وحين نتحدث عن الثقافة اللازمة للناقد فإننا لا نستطيع أن نفــرق بأى حال من الأحوال بين الثقافة اللغوية والثقافة الأدبية والثقافة بمعناهــا العام.

فالثقافة اللغوية تعيــن النــاقد فــى معرفــة الألفــاظ ووســائل صياغتها ، وما يمكن أن تؤديه من المعانى ، وما تحملته من معان علــى مر الزمان ، كما تعينه على معرفة أنــواع التصــرف والمجــاز التــى اصطنعها أصحاب اللغة أو جماعة الأدباء .. ذلك كله هو سبيل النــاقد الوحيد للحكم الصحيح.

والحقيقة أنه قد أشار كثير من نقادنا القدامى إلى ثقافة الناقد ورأوا أنها القاعدة التى يمكن أن ينطلق فيــها كــل فــن مثقــف وكــل نقــد صوابى ، وهذه الثقافة هى التى تؤهل الناقد ـ أكثر من غيرها ـ لعمليــة التصدى لدراسة الإبداع ، وإعطاء أساس نقدى سليم(١).

---

(١) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبه ص٢٠ و١٨٤ طبع فى مدينة ليدن المحروسة ، مطبعة بريــل ١٩٠٢م وانظر كذلك طبقات الشعراء لابن المعتز ص٩٥ وما بعدها ، تحقيق عبــد الســتار أحمــد فراج ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثالثة.

ولسنا فى حاجة إلى الإبانة عن الطريق التى تحقق للناقد تلك الثقافة[1].فهى طرق كثيرة ومتعددة ، منها كثرة الاطلاع وإدامة النظر فى الآثار الأدبية ، فهذا هو السبيل الذى يوصل إلى العلم بالأدب ، ويتخرج به الناقد المتخصص الذى يكون رأيه أدعى إلى الاحترام.

يروى الآمدى فيقول :

"قيل لخلف الأحمر : إنك لا تزال ترد الشىء من الشعر ، وتقول: هو ردىء والناس يستحسنونه !

فقال : إذا قال لك الصيرفى : إن هذا الدرهم زائف فاجهد جهدك أن تنفقه فانه لا ينفعك قول غيره : إنه جيد.

وقد عقب الآمدى قائلا :

"فمن سبيل من عرف بكثرة النظر فى الشعر والارتياض به وطول الملابسة ويقبل منه ما يقوله ، ويعمل على ما يمثله ، ولا ينازع فى شئ من ذلك ، إذ كان من الواجب أن يسلم لأهل كل صنعة صناعتهم ، ولا يخاصمهم فيها ، ولا ينازعهم إلا من كان مثلهم نظيرا فى الخبرة وطول الدربة والملابسة"[2].

---

(١) ليس مقصودنا من وجوب الثقافة النقدية أن يلتزم الناقد بكل رأى سلف ، أو أن يكون مقلدا لمن سبقوه فى النقد ، كلا فمثل هذا العمل يقضى على شخصية الناقد ، ويحد من حريته.

(٢) الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى : ٤١٤/١. تحقيق السيد أحمد صقر. دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢م.

ومن الثقافة اللازمة للناقد الأدبى المعرفة بأصول النقد وقواعد الأدب ، والمعرفة أيضا بالمدارس الأدبية والمذاهب النقدية واتجاهات كل منها ، والوقوف على التراث النقدى الذى خلفه النقاد القدامى الذين سبقوه ، إذ الحال أنه لا توجد صناعة من الصناعات إلا ولها ثقافة من جنسها ، وإفادة من التجارب والخبرات التى سبقتها.

ومنها كذلك المعارف الأدبية والإلمام بالعلوم والفنون ، ومعرفة حياة الأدباء وبيئاتهم وثقافاتهم ، ونوازعهم ، وسائر العوامل المؤثرة فى تكوين عملياتهم وتوجيه عواطفهم.

٢- الموهبة :

لا شك أن الموهبة ضرورية فى الفنون ، وهذه الثقافات المتوفرة للناقد مع ما لها من أثر فى صناعة النقد لا تجدى نفعا إذا لم يساندها طبع أصيل وموهبة فذة ، إذ بدون الموهبة لا ينبغ فنان ولا يصح فنه.

على أن الموهبة على خطرها ، وبعد أثرها لا تكفى ما لم تصقل بثقافة العصر، والدراية الكاملة بما يجرى فى المحيط الفنى من تيارات ومدارس ومذاهب ، ومن الضرورى أن يطلع الناقد على كل هذه التيارات ويحيط بها ، لتثقيف موهبته وليتناول فنه حين يتناول وهو واع بثقافة العصر ومحيط بمستحدثاته ، فى هذا المجال ، ويعالج كل ما يعرض له بثقة واقتدار ، إذ لا شك أن الذوق المدرب والمثقف هو خير وسائل الحكم النقدى ، ولا يخفى على أحد أن الناقد الخالى الوفاض من كل تلك المعارف يكثر زلله ، ويكون ضرره فى الحياة الأدبية أكثر من نفعه.

٣- والذى ننشده فى الناقد الموضوعى :

أن يتوفر له ما ينبغى للقاضى من أدب النفس ، وتزكيتها بالفضائل الإنسانية ، من عدالة وإنصاف وعفة ، وأن يكون قادرا على التحكم فى نوازع نفسه وأهوائها ، حتى لا يجرفه شعور الحب إلى الإسراف فى الثناء ، ولا شعور العداوة على النيل من الأعمال الجيدة.

إن النقد الأدبى السليم هو الذى يضع العمل الأدبى موضعه الجدير به ، وهو دون شك عمل من الأعمال الإيجابية البناءة فى صرح الحياة الأدبية ، فإذا تنكب الناقد الطريق ، وفقد روح العدالة وحب الإنصاف ، فإن هذا يعتبر خيانة ، للأمانة التى حملها ، والرسالة التى لم يقدرها حق قدرها ، هذا فضلا عن أن عمله هذا يخفى وجه الحقيقة التى هى مطلب كل إنسان عاقل رشيد.

ومن هنا نجد أن النقد الأدبى له قيمة لا ينكرها أحد ، كما أن له أثرا فى الأديب المنشئ ، وفى القارئ للأدب.

يقول الدكتور/ ماهر حسن فهمى :

"وإذا كان الأدب صورة الحياة بما يرسمه لها من معالم قوية بارزة وبما يلقيه من ضوئه الخالد على جوانبها المظلمة ، فإن النقد هو الجانب الآخر لصورة الحياة بتصحيحه لبعض أجزاء الصورة أو تكميله لها ، أو توجيهه للفنان نفسه ، أو عرض صورته للناس.

والقارئ لا شك حين يطلع على النقد ، يضم إلى تجاربه تجربة جديدة لفرد أكثر تجارب وأرشد عمقا وأوسع ثقافة"[١].

ويقول الدكتور/ شوقي ضيف :

"ونحن لا نشك في أن نقد الآثار الأدبية شيء صعب ، لأنه لا يعتمد في جوهره على قواعد مقررة ثابتة ، ولأنه يحتاج إلى ذكاء ومهارة في العرض ، فلا يكفي أن يكون الإنسان دارسا لنظريات النقد الحديثة ومناهجه ، بل لا بد أيضا أن يكون من دقة الذوق وجمال الأداء بحيث يصوغ نقده صياغة تروق القارئ ، وخذ مثلا تجربة كيميائية يعرضها علماء مختلفون فإن كل عالم كيميائي يعرضها بنفس الطريقة ، إذ يسجل نفس الظواهر ونفس النتائج ، وهذا ما لا يحدث في النقد ، فلكل ناقد عرضه ، ولكل ناقد ذوقه وطريقته في الأداء. ويتفاوت النقاد في ذلك حسب قدرتهم الأدبية ، ومهاراتهم ، وحساسيتهم، ووعيهم بما يتطلبه الموضوع منهم وعيا يجعلهم ينوعون طرقهم كلما ألموا بأثر أدبي.

وما أظن صفة ينبغي أن يتحلى بها الناقد تبلغ صفة العدالة في وزنها وقيمتها ، إنه حكم أمين ، فينبغي أن يضع في يده موازين عادلة ورشيدة لا تميل مع أي هوى ولا أي تعصب ، ومن أجل ذلك كان حريا به أن لا ينقد أثرا أدبيا لا يتفق ومثله في الحياة حتى لا يجوز عليه في حكمه وتقديره. والناقد الحق لا يرفع شيئا فوق قيمته ، ولا ينزل شيئا دون قيمته ، وإنما يحق الحق للصديق وغير الصديق ، فلا يثني إلا في مكان الثناء ، ولا يزري إلا في مكان الإزراء وتلك مسئولية عليه أن يتحمل تبعتها ، وينهض بها في غير تقصير"[٢].

---

(١) المذاهب النقدية ص٥. دار الطباعة الحديثة ، نشر مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٢م.

(٢) في النقد الأدبي ، ص٥٧.

ويقول الأستاذ أحمد أمين :

"فالناقد كثيرا ما يعطينا وجهة نظر جديدة تماما ، وكثيرا ما يؤدى مساعدة خاصة بأن يترجم إلى تعبير محدد ، احساسات لنا كنا نحس بها إحساسا مبهما غامضا ليس له قيمة علمية ، فهو أحيانا مستكشف يستكشف أرضا جديدة ، وهو أحيانا رفيق صديق يدلنا على جوانب غير منظورة من الأشياء التى نمر بها فى طريقنا حتى من تلك التى نعرفها معرفة جيدة. وهكذا يعلمنا أن نقرأ ثانية لأنفسنا بذكاء أعظم وبتقدير أعمق ، ثم ليس هذا كل شئ ، فإنه كثيرا ما يؤدى لنا أعظم المساعدة حين يتحدى أحكامنا الخاصة ويعارض آراءنا التى سبق أن كوناها ، ولا يقتصر على التعليم بل الإثارة والاستفزاز ، فإذا قرأناه كما يجب أن نقرأ الأدب الذى يتناوله بعقل حاضر منتبه فطن ، فإنه لن يكون أمرا هاما ، هل نحن نوافق ما يقوله لنا أم نرفضه. ففى كل حالة سوف نكسب من تناوله فى عمق النظرة وفى القوة"[١].

ويقول الدكتور محمد السعدى فرهود :

"ولا نقبل أن يرسل الناقد نقده على هواه ، أو يغفل التراث النقدى ، فإن للبشرية منذ عهد الإغريق نظرات ناقدة نافذة ، ما تزال إلى اليوم مرادا لطلاب المعرفة ، ومجالا للنقاش والجدل. ولا نريد أن نفرض على الناقد أن يلم بالتراث النقدى كله ، إذ يكفيه أن ينتقى من

---

(١) النقد الأدبى ، ص١٧٩ ، القاهرة ١٩٤٤م.

هذا التراث ما يصنع له منهجا نقديا ، وحبذا أن يقتنع بأن مسلكه حين ينقد ـ ونقصد مسلكه العلمى ـ لا غبار عليه. ولا نمنع أن يجتهد الناقد فيبدى وجهة نظر جديدة ورأيا مبدعا ، فهذا من حقه ، وإنما نمنع أن يضيع الناقد ذلك التراث النقدى ، لنزوة أو لرغبة تتسلط عليه. ومن هنا نستطرد إلى القول بأنه من غير المقبول لدينا ـ ولدى أى منصف ـ أن نستجيب للدعوات التى تدعونا إلى أن نقطع صلتنا بالبلاغة العربية وبالأعمال النقدية العربية القديمة ، بحجة أن وجهات نظر جديدة قد ظهرت فى أوربا ، فعلينا أن ننقلها إلى ميدان أعمالنا النقدية. ولا نظن أن تلك دعوات مستوية ، ولا أن هذه حجة غير منقوضة ، فمن الصعب أن نلغى ـ أو نهمل ـ مئات السنين من عمرنا الفكرى ، بل إنه أولى لنا أن نعيد فى تراثنا النقدى العربى نظراً ، لعلنا نقف فيه على ذخيرة ، نعيد صياغتها ، أو زادا تفاخر به ..."[١]

ثالثاً : مناهج تحليل النص الأدبى

النقد الأدبى هو تقدير النص الأدبى تقديرا صحيحا ، وبيان قيمته ودرجته الأدبية ، وعلى هذا فإنه وإن كانت طبيعة النقد واحدة أو تكاد ، فإن النقد الأدبى يختص بالأدب وحده ، ويدل هذا التعريف على عدة ملاحظات نذكر منها :

١. أن الهدف الأساسى من النقد الأدبى إنما هو تقدير الأثر الأدبى ببيان قيمته فى ذاته قياساً على القواعد أو الخواص العامة التى يمتاز بها الأدب بمعناه العام أو الخاص.

---

(١) قضايا النقد الأدبى الحديث ، ص٦.

٢. يدل هذا التعريف على أن النقد يبدأ وظيفته بعد فراغ الأديب من إنشاء الأدب المراد نقده ، فالناقد يتقدم للأدب الموجود بالفعل ، ويأخذ بتفهمه ، ويفسره ، ويحلله ، ويقدره وعلى هذا فالنقد وإن كان يزيد الأدب تهذيبا وصقلا فإنه ليس بمكنته إيجاده من العدم ، وإن كان الإنصاف يقتضينا القول إن عملية إبداع الأدب وتذوقه ونقده قد تتحقق فى نفس أديب واحد موهوب موهبة خاصة.

٣. لا بد للناقد الأدبى _ لكى يستطيع أن يؤدى وظيفته خير أداء _ أن يكون على معرفة باللغة وأساليب التعبير بها ، وأن يكون واسع الاطلاع فى الثقافة الأدبية ، وأن يكون كذلك ثاقب النظر ، مهذب الذوق ، قادراً على المشاركة العاطفية مع الأديب .. ولسنا فى حاجة إلى الإبانة عما تحققه مثل تلك المعارف والصفات للناقد من الفوائد.

٤. وإذا كان للذوق الأدبى اتصال وثيق بما يصدر الناقد عنه من أحكام فإننا يمكننا أن نقول إن للذوق الأدبى دخلا قويا فى باب النقد ، وهو عدة الناقد ووسيلته الأولى ، وإليه يرجع إدراك جمال الأدب ، والشعور بما فيه من ضعف ، وإليه أيضاً نلجأ فى تعليل ذلك وتفسيره ، وبه نستعين فى اقتراح أحسن الوسائل لتحقيق خواص الأدب الرفيع المؤثر وفوق ذلك كله يمكننا أن نقول إن ما ينشئه الأديب إنما هو فى الوهلة الأولى ثمرة ذوقه الأدبى.

وقد اصطلح المحدثون من علماء الأدب على تقسيمه إلى قسمين :

١- الأدب الإنشائى :

وهو مجموعة الأعمال الأدبية التى يؤلفها الأديب شاعرا كان أم كاتبا. فالقصيدة التى ينظمها الشاعر ، والخطبة التى يلقيها الخطيب على جمهور من الناس ، والمقالة التى يكتبها الكاتب فى موضوع من الموضوعات وكذلك القصة وغيرها .. كل هذه من الأدب الإنشائى ، فكل أديب من هؤلاء الأدباء ينشئ أدبه لينفس عن نفسه بالتعبير عن تجربته ، وليشارك غيره فى عواطفه وانفعالاته ، ذلك لأنه يجد فى مشاركته الشعورية للآخرين راحة لنفسه ، وإرضاء لمشاعره ، وقد يعمد الكاتب إلى إبراز الخصائص والمعالم التى تتميز بها شخصية من الشخصيات التى يختارها موضوعا لبحثه ، وهذا لون من ألوان الأدب الإنشائى ، ويسمى "السيرة الذاتية".

٢- الأدب الوصفى :

إذا فرغ الشاعر من نظم قصيدته ، أو الكاتب من إنشاء مقالته ، وكذلك الخطيب ، والقصاص ، والمؤلف المسرحى ، فإن هذه الأعمال تعرض بعد ذلك على جمهور المتلقين بقصد التأثير فيهم ، وتوجيههم الوجهة التى يرضاها الأديب.

وليس من شك فى أن هذه الأعمال تقع من نفوس المتلقين مواقع مختلفة ومن هؤلاء المتلقين من يحاول التعبير عن رأيه بالكلمة ، وهو فى عبارته يفسر ، ويحلل، ويعلل ، وقد يبين ما فى العمل الأدبى الذى قرأه من مزايا وجودة ، أو رداءة وعيوب ، ويأخذ يعمل على إقناع قارئه بما اقتنع هو به ، ليحمله إلى التأثر بما أثاره، فيشاركه الرأى بما يورد من الأسباب والبراهين.

ومن فنون الأدب الوصفى ما يسمى (تاريخ الأدب) وفيـــه يفتــن الكاتب فى رسم صورة واضحـــة للحيـــاة الأدبيـــة فـــى عصـــر مـــن العصور ، أو فى بيئة من البيئات ، أو فى طور مـــن أطـــوار الحيـــاة الإنسانية ، أو من خلال اتجاه فنى معين ، أو طريقة معينة مـــن طـــرق التعبير التى يتناول بها الدارسون الأعمال الأدبية ، وقد يلجأ الكاتب إلـــى رصد مراحل الحياة الأدبية ، ودراسة العوامل الزمانية والبيئيـــة التـــى أثرت فى حياة الأدب والأدباء إن ازدهارا وقوة ، أو انحدارا وضعفا.

وفى ضوء مثل هذه الدراسات يمكن رد العمل الأدبى وصاحبـــه إلى الزمان والبيئة ، فيصبح مرجعا لمن أراد أن يتعرف على ما كـــان للسابقين من أعمال أدبية من جهة ، وعلى ما بين هـــذه الأعمـــال مـــن الصلات التى تقرب بعضها من بعض ، والخصائص التى يتمـــيز بـــها بعضها عن بعض من جهة أخرى ، وهذا بلا شك جانب له أهميته فـــى جلاء نواحى الأصالة فى الأدب أو الأديب ، ثم فى الكشـــف عن طبيعـة التجديد واتجاهاته ، وهذه التأثيرات هى محور دراسات كثيرة ، وعلـــى وجه الخصوص فى عهد نهضتنا الحاضرة .

وليس من شك فى أننا لاحظنا منذ وقت مبكر التطور الهائل الـذى طرأ على الدراسات الأدبية بشكل كبير ، فقد ظهرت دراسات يمكـــن أن نعتبرها دراسات أدبية جديدة تحتفل بالمنهج الجديد ، وتتـــأثر بالمنـــاهج الحديثة فى الدراسات الأدبية الحديثة وخاصـــة فـــى المنـــاهج الأدبيـــة الأوربية ، ونحن لا نغفل أن أصحاب هذه الدراسات قد أتيـــح لـــهم أن يحتكوا بآداب الغرب ، وأن يقفوا على مناهجهم فى الدراســـات الأدبيـــة وغيرها[1].

---

(١) انظر تطور النقد العربى الحديث فى مصر ، د/ عبد العزيز الدسوقى ، ص١٧٥ وما بعدهـــا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٧ .

وعلى ضوء ذلك كله يمكننا أن نقول إن النقد جنس من أجناس الأدب ، وهو لون من ألوان الأدب الوصفي ، يختلف عن الأدب – الإنشائى الذى ينشئه الأدباء المنشئون ويألفونه ، وفيه – أى النقد – يعبر الناقد عن رأيه فى العمل الأدبى ، ويرى فيه الجودة أو الرداءة .. وعلى هذا فموضوع النقد هو الأدب نفسه : القصيدة التى ينظمها الشاعر يعبر فيها عن أحاسيسه ومشاعره ، والمقالة التى يكتبها الكاتب فى موضوع من الموضوعات التى تشغله أو تشغل الناس ، والخطبة التى توجه الناس الوجهة التى يرضاها الخطيب وكذلك المسرحية والقصة والسيرة الذاتية .

والذى يعنينا من هذا كله أن الناقد لا يقدم على تفسير أو تعليل إلا بعد أن يفرغ الأديب من أدبه ، وبعد ذلك يوضع هذا اللون الأدبى بين يدى الناقد ، فيكون مادته التى يدرسها ويتذوقها ، ويطبق عليها الأصول والنظريات التى تعلمها ، ويستفيد فى ذلك كله بتجاربه وخبراته ، وبتجارب وخبرات الآخرين ، ثم يجتهد ليضع اللون الذى يتصدى لنقده فى موضعه .

وإذا كان النقد سبيلنا لإصلاح ما فسد ، والوسيلة المثلى التى تهدى الباحثين إلى أهدى السبل وأسمى الغايات فإنه ينبغى أن يتخلص من الأحكام العامة المرتجلة ، وأن يكون نقدا مبنيا على معرفة ، وحينئذ تكتب المقالات النقدية ، وتؤلف الكتب فى نقد الأدباء ، وإنزال كل منهم المنزلة الجدير بها .

ومن ألوان النقد الأدبى :

١. **النقد التاريخى :** وهو لون نقدى يقف على الصلة التى بين الأدب والتاريخ ، ويتخذ من حوادث التاريخ بجميع صوره وسيلة لتفسير الأدب ، وهذا ما يسمى (بالمنهج التاريخى) .

٢. **النقد الفنى (المنهج النقدى) .**

٣. **النقد الشخصى (المنهج الشخصى) .**

والنقد الفنى هو أخص الألوان النقدية وأقواها لمن يريد فهم طبيعة الأدب ، وبيان عناصره ، وأسباب جماله وقوته ، وهو كما يقول الأستاذ أحمد الشايب عنه : "هو النقد حقا ، وما سواه من الطريقة التاريخية أو الشخصية تفسير ، وإن كان – بلا شك – يعين على صحة النقد ، وعلى سلامة أحكامه من الغموض والضلال "[١].

وحين نتحدث عن وظيفة الأدبى فإنه يجدر بنا أن نقول إن البعض قد يتحاملون على النقد الأدبى وعلى جماعة النقاد ، فيعدون النقد عملا لا غناء فيه ، ويعدون النقاد متطفلين على الأدباء الذين ينشئون الأدب ويبتكرونه فى أجناسه المختلفة .

ونحن إذا سلمنا بذلك لكنا قد سلمنا بخطأ كبير وهو ذهاب النقد الأدبى ، يقول الأستاذ أحمد الشايب : "ماذا يحدث لو ذهب النقد الأدبى أو النقد مطلقا ؟ لا شك أن الحياة تنطوى إذ ذاك على خطأ

---

(١) أصول النقد الأدبى ص ١٤٥ .

كبير ، وضلال مبين ، وتخضع فى سيرها لآراء أو نظريـــات طائفــة خاصة غير معصومة ولا متناسقة الجهود ، وتمر فاترة وقد تموت فيــها المواهب وينادى بذلك الأدباء والفنيون أكثر من كل أحـــد ، وإلا فمــن يرشـــدهم إلـــى الحـــق ، ويعينـــهم علـــى الكمـــال ويصرفـــهم عـــن الضلال ، ويصل بينهم وبين الناس لعل الناس ينتفعون بـــالفنون والآداب نفعا سليما عميقا ، ولو ذهب النقد العلمـــى تعرضـــت الحيـــاة لمـــآس مهلكة ، ونتائج زور ، وعاش الناس فى ضلال وأوهام "[١].

ويقول أيضا : "وربما كـــان النقـــد الأدبـــى أحـــق مـــن ســـواه بالعنايـــة ، لأن الأدب نفســـه أكـــثر شـــيوعا ، وأمـــس بالحيـــاة الاجتماعية ، وأجمع لخلاصات الجهود الإنسانية من سائر الفنون ، وهو بعد ذلك صريح واضح ، درجة الإيجاز والرمز فيه أقل منها فى الرســم والموسيقى والتصوير لذلك كان أبعد أثرا فى حياة الناس . وكان أحـــق بالنقد والتعقيب ، ومن بين الأدب ونقده تتجلى الحقائق وترســم المثــل العليا ، وتتقدم الحياة وتصقل المواهب الإنسانية حتى قال بعض النقـــاد : إن الحياة الاجتماعية لأمة من الأمم تعرف من آراء النقاد أكـــثر ممـــا تعرف من الأدب نفسه ، أى أنه يمكن أن يعرف الإنسان من ملاحظـــات النّقاد على الكتاب والشعراء صحة مطابقتها للأخـــلاق والعـــادات مـــن عدمها ، لأن النقاد يرون ما لا يراه الكاتب نفسه فتكون آراؤهم أقـــرب إلى الصواب من آراء الكاتب ، وهذه الآراء تبين أفكار الكاتب وحكمـــه

---

(١) أصول النقد الأدبى ص ١٦٩ .

على المجتمع الذى يعيش فيه . لهذا قيل : "إن الحكم على الأدب نفسه هو صورة الاجتماع ، أى أن المؤرخ الذى يريد أن يأخذ شيئا من كتابة الأمم للحكم على مدنياتها ، عليه أن يجمع آراء النقاد المختلفة ، ويوزن بينها ليستخلص منها صورة صحيحة عن الحالة الاجتماعية" [١].

والحق أن النقد الأدبى صناعة لا غنى عنها مطلقا ، وهذا يدلنا على أهم الوظائف التى تقوم بها صناعة النقد ، ومن هذه الوظائف ما يخدم الحياة الأدبية بصفة عامة ، ويعمل على إثرائها وتنشيطها ، ومنها ما يخدم الفن الأدبى ، ومنها ما يخدم الأدباء أنفسهم – وبخاصة المنشئين منهم – كما يفيد القراء ، وغير ذلك .

ومن تلك الوظائف :

١- أما من جهة أنه يفيد الحياة الأدبية ، فليس من شك فى أنه يؤدى إلى احتكاك الآراء ، واختلاف وجهات النظر ، والأخذ والرد من النقاد الذين تختلف مقاييسهم النقدية ، كما يؤدى إلى تصادم أفكار الأدباء من ناحية والنقاد من ناحية أخرى ، وزيادة تعقب النقاد للأدباء .

وهذا بدوره ينشط الحياة الأدبية ، فالأدب لا يزدهر إلا بالنقاد وهم الذين يوجهونه ، وهم أيضا الذين ينيرون المسالك للأدباء ويوجهونهم نحو الآفاق التى تشرق فيها مواهبهم ، وهذا بدورة أيضا يجعل الأديب يبسط سلطانة على النفوس ، ويبين صلاته المتعددة بالزمان والمكان ، ويجعله يتبوأ مكانه اللائق به بين العلوم والفنون وبخاصة فى عصرنا الحديث الذى انصرف الناس فيه إلى الماديات .

---

(١) أصول النقد الأدبى ص ١٦٩، ١٧٠ .

ويهمنا ان نقول فى هذا المقام إن عدة النقاد فى هذا الدور الــذى يقومون به مع الأدب والأدباء تتمثل فى ثقافتهم العريضـــة ، وأذواقــهم الرفيعة ، وعقولهم الواعية، وأفكارهم وتجاربهم التى قبسوها من حياتــهم الحافلة بالاحتكاك والتصـــادم ، والتـــى أوقفتــهم علـــى كــل جميــل بديع ، وعلى كل ضعيف متخلف .

أما من جهة أنه يفيد الفن الأدبى والأدباء فمن الوجوه التالية :

أ. أن النقــد الســليم يقــوم الأدبـــاء ، ويوجهــــهم الوجهـــة الصحيحة ، وينظر فى مقدار ما وفقوا فى إبداعهم ، فإن كـــانوا صائبين روج لطريقتهم ووطد لها ، وإن كانوا على غير صـواب نبههم للخطأ ، وأوقفهم على طريق الصواب .

ب. أن يقدر العمل الأدبى ، ويحكم عليه بالجودة أو الـــرداءة وفقــا للمعايير النقدية الصحيحة ، وتلك وظيفة كبرى مـــن الوظــائف التى يقوم بها النقد الأدبى ، ما دامت للفن الأدبى منزلته الرفيعــة بين الفنون ، فهو فن لا بد أن يحظى بعناية بالغة توقــف علـــى روائعه ، وتبعد عنه النماذج غير الرفيعة .

ج. أنه يفسر الآثار الأدبية ، ويحـــاول تحليلـــها وتعليلـــها ، وبيـــان الأصول اللازمة لفهمها ، كما يحلل الدوافع النفسية التى كان لـــها سلطان على الأديب وهو يؤلف عمله الأدبى .. وهذا كله عمـــل يمثل حلقة وصل بين الأدباء من جهة وبين المتلقين مـــن جهـــة أخرى وقد يكون هذا النقد تسليطا للضوء على أديب مغمـــور لا يعرفه الناس .

وفى هذه الحالة لا تكون غاية الناقد تقويم العمل الأدبى ، أو إصدار حكم عليه ، وإنما تكون غايته أن يصل بين الناس والأدباء المغمورين ، فيمكن لمنزلتهم فى النفوس ،ويجعلهم يشتركون فى الحياة الاجتماعية مؤثرين ومتأثرين ، فيزداد نتاجهم بذلك خصبا ، يؤكد ذلك أن كثيرا من الأدباء قد يعتبون على النقاد إن أهملوا أعمالهم أو أعرضوا عنها .

د. أنه يعكس للأدباء رأى الناس فيهم ، وهذا من شأنه أن يكمل الدائرة ، وأن يوثق بين الأديب والناقد والمتلقى ، مما يعين على الفهم ، ويساعد على الإفادة ، فإذا بالأدب يكون واضحا جميلا ، وفنا نافعا مفيدا ، وفى هذه الحالة قد يتعدى الأمر إلى اقتراح ما ينهض بالأدب ، ويوسع فى آفاقه من فنون جديدة ، أو أساليب ممتعة ، أو أفكار خصبة وغير ذلك .

٢- ومن جهة أخرى فإن النقد الأدبى هو الوسيلة الوحيدة والمثلى لوضع حد للفوضى فى الإنشاء [١]، فكثير من كتبنا التراثية الرفيعة كانت بمثابة رد فعل للثورات النقدية .

٣- يعد النقد الأدبى تلخيصا مفيدا للقراء ، فهو يوفر لهم كثيرا من الوقت والجهد ذلك أنه يعرض عليهم خلاصات تتصل اتصالا قويا بدراساتهم ، ويبين لهم نواحى الكمال إن كان فيها

---

(١) يمكن القول بأن التيارات النقدية التى ظهرت فى القرن الأول كانت سببا فى تأليف الكتب والفصل فى الخصومات ، وهذا بدوره يضع حدا للفوضى فى التأليف .

كمال ، أو نواحى الضعف إن كان فيها نقص ، وفضلا عن ذلك كله فإنه لما كان قراء الأدب طبقات مختلفة الكفايات كان النقد الأدبى هو الطريقة المثلى التى تمثل الوسيط الجيد الذى يصل بين النفوس بقصد تقريب الآثار الأدبية إليهم .

٤- والحق أن النقد الأدبى ظاهرة اجتماعية لا غنى عنها مطلقا ، ما دام للفن الأدبى حياة ، وما دامت له تلك المنزلة الرفيعة بين الفنون الإنسانية ، وما دام له ذلك التأثير فى حياة الأمم والشعوب .

وفى نهاية هذا الحديث ينبغى أن نقول إنه ليس لتحليل النصوص الأدبية منهج بعينه يلتزم به النقاد ، ويرون اللجوء إليه عند تحليل النص وشرحه وتفسيره ، والحكم عليه فى النهاية ، فالمنطق يحتم علينا أن نقول إن المناهج متعددة ، ووجهات النظر مختلفة ،وعلى هذا فنحن نحاول أن نحدد المناهج المشهورة ، وهى[1] :

١- **المنهج الفنى .**

٢- **المنهج التاريخى .**

٣- **المنهج النفسى .**

٤- **المنهج المتكامل .**

---

(١) انظر النصوص الأدبية تحليلها ونقدها ، د/ على عبد الحليم محمود ص٢٠ وما بعدها ، شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع ، جدة ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م .

(١) المنهج الفنى

وهو منهج يقوم على القواعد والأصول الفنية ، بمعنى أنه يجعل من القواعد والأصول الفنية أساسا يعتمد عليه فى الحكم على النصوص الأدبية .

وهذا المنهج ذاتى وموضوعى فى آن واحد ، ولعل ذلك راجع إلى اعتماده على محورين أساسيين :

(١) المحور الأول هو التأثر الذاتى من محلل النص (أى الناقد) .

(٢) المحور الثانى هو ما توفر فى النص من عناصر موضوعية ، وأصول فنية .

وهذا المنهج يعد أقرب المناهج إلى طبيعة الأدب ، وإلى طبيعة الفن ، ولعل هذا هو السبب الذى يجعله أحرى المناهج بالقبول لدى دارسى الأدب وناقديه ، لأنه يواجه النص الأدبى بالقواعد والأصول الفنية المقررة فى علوم اللغة ، وعلوم البلاغة، وما يتعارف عليه أهل كل علم وفن من خصائص ومميزات .

ومن أهم أهداف هذا المنهج ما يلى[1] :

١- تمييز الجنس الأدبى عن غيره من الأجناس ، كالقصيدة أو القصة ، أو الرواية ، أو المسرحية ، أو المقالة ، أو الرسالة ، أو البحث ، أو ترجمة الحياة ، بحيث يوضح لنا خصائص هذا الجنس ، ومدى ما توفر له من هذه الخصائص .

٢- توضح القيم الشعورية والقيم التعبيرية فى النص ، وبيان مدى انطباقها على الأصول الفنية لهذا النص .

٣- تلخيص خصائص الأديب نفسه من الناحية الفنية ، أى التعبيرية والشعورية من خلال دراسة هذا النص وتحليله ومواجهته بهذه القواعد والأصول الفنية .

(٢) المنهج التاريخى

والمنهج التاريخى يعتمد على تعرف النص الأدبى ، ومدى تأثره بالبيئة أو تأثيره فيها ، وما له بهذه البيئة من أطوار مر بها .

وهذا المنهج لا يمكن له بأى حال من الأحوال أن يغفل المنهج الفنى ، ذلك لأن تذوق النصوص الأدبية يقوم أساسا على دعائم المنهج الفنى ، وهذا ما جعل المنهج الفنى أهم من سواه فى مجال النقد الأدبى .

---

(١) انظر المصدر السابق ص٢١ .

ويتطلب هذا المنهج التعرف على ما يلى :

١. الأديب وظروف حياته .

٢. النص الأدبى وما فيه من قيم .

٣. الآراء التى تناولت الأديب فى النص .

٤. الأطوار التاريخية التى مرت بها الفنون الأدبية .

(٣) المنهج النفسى

وهو منهج يهتم بتحليل النص الأدبى عن طريق تسليط الضوء على نفسية الأديب المبدع ، بمعنى أنه يهتم بإبراز العناصر النفسية التى أسهمت فى العمل الأدبى .

ويستهدف هذا المنهج توضيح دلالة العمل الأدبى على نفسية صاحبه ، كما يستهدف توضيح أثر هذا العمل الأدبى فى نفوس الآخرين عند قراءته والإطلاع عليه.

(٤) المنهج المتكامل[١]

وهو منهج يعتد بكل المناهج التى سبقت ، ويتخذ أصولها وقواعدها أساسا فى الحكم على العمل الأدبى ، وبمعنى آخر إن هذا المنهج يجمع إيجابيات المناهج الأخرى ، ويتجنب سلبيات هذه المناهج .

---

(١) انظر النقد الأدبى أصوله ومناهجه ، سيد قطب .

وعن خصائص هذا المنهج يقول الدكتـــور علـــى عبـــد الحليـــم محمود[١] :

أولا : المنهج المتكامل لا ينظر إلى الإنتاج الأدبى على أنه إفراز للبيئة العامة بالدرجة الأولى ، ولكنه إفراز للأديب ، والأديب متأثر فـــى الغالب الأعم ببيئته ...

ثانيا : المنهج المتكامل لا يتجاهل القيـــم الشـــعورية ولا القيـــم التعبيرية فى الأثر الأدبى ، وإنما يأخذها فى اعتباره ، ويقيـــس جـــودة الأثر الأدبى أو رداءته بمقاييسها ، وهى مقاييس فنية جيدة .

ثالثا : المنهج المتكامل لا ينظر إلى الإنتاج الأدبـــى علـــى أنـــه إفراز لعوامل نفسيه محددة البواعث ، معروفة العلل ، وإنما ينظر إليـــه على أنه نتاج النفس البشرية بكل ما أودعها الله من قدرات ، وما هيـــأه لها من استعدادات النفس البشرية التى تعد من أكبر العوامل التى خلقـــها الله ومن أغناها .

رابعا : المنهج المتكامل وإن كان تعامله الأساســـى مـــع العمـــل الأدبى فى ذاته إلا أنه لا يغفل الجوانب الأخرى التى تسهم فـــى العمـــل الأدبى وتؤثر فيه دون شـــك ، مثـــل علاقـــة العمـــل الأدبـــى بنفســـية صاحبه ، وأثر البيئة فى صاحب العمل الأدبى ، فهو منهج يجمـــع فـــى خطواته معظم إيجابيات المناهج التى تحدثنـــا عنـــها ، ويتجنـــب فـــى خطواته أكثر سلبيات تلك المناهج ، ومن ثم كـــانت تســـميته "المنـــهج المتكامل" تسميه مناسبة حقا .

---

(١) النصوص الأدبية تحليلها ونقدها ص٦٠، ٦١ .

رابعا : الخطوات المتبعة فى دراسة النص الأدبى

لقد أفاض النقاد فى الحديث عن تحليل النصوص الأدبية ، وأكثروا القول حول الخطوات التى ينبغى اتباعها عند تحليل نص من النصوص الأدبية ، وغايتهم من ذلك أن يكون المتناول للنص سريع الاستجابة للتأثيرات التى تثيرها فى نفسه قراءة النص الأدبى.

ومع ضرورة توفر الذوق الأدبى لمن يريد أن يقدم على تحليل نص من النصوص ، مع ضرورة ذلك فإنه لا بد لصاحب هذا العمل أن يكون ذا نزعة إنسانية فى نقده تدعوه دائماً إلى الالتقاء مع أصحاب النصوص التى ينقدها.

ولقد برع الدكتور محمد كامل الفقى فى حصر وتتبع الخطوات التى ينبغى الأخذ بها فى دراسة نص من النصوص الأدبية ، ونحن نوردها بنصها كما ذكرها وهى تتمثل فى[1]:

أولاً : أن تضع أرقاماً للنص الشعرى لتكون شبه ضوابط للأفكار المتعددة فى النص ، فتسهل تحديد هذه الأفكار بتلك الأرقام ، ولتجد معانيها اللغوية فى هامش الصفحات بمراعاة هنا الترقيم.

---

(١) من عيون الأدب، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م،ص٦ وما بعدها.

ثانيا : أن تسوق ترجمة قصيرة لصاحب النص تركز فيها علـــى ما له صلة وثيقة بهذا النص ، فإذا كان النص منسوبا مثلا للصنوبـــرى شاعر الطبيعة العباسى نوهت بإحســـانه وصـــف الطبيعـــة ، وفتونـــه بها ، ذلك الذى يتمثل فى بستانه الذى أنشأه وتعهده بالسقى والنماء ممـــا هو أثر من إلفه للرياض وامتزاج نفسه بها.

وإذا كان النص لأبى تمام أو المتنبى أشرت إلى غوصـــهما فـــى الفلسفة مما أضفى على أسلوبهما العمق والغرابة.

وإذا كان منسوبا للبارودى وجاء نصه فى الفخر والحماسة نوهـت بنشأته الحربية ومناصبه العسكرية والميادين التى خـــاض معاركـــها .. وهكذا. وأقرب توضيح لهذه الترجمة أن تكون "بطاقة" لصاحبها.

ثالثـاً : أن تتحـــدث عـــن المناسبـــة التـــى قيـــل فيـــــها النـــص ، والمناسبة فيما أرى لونان :

أ- مناسبة مباشرة كالتهنئة بفتح أو إدراك أمل ، أو قـــدوم عيـــد ، أو عودة من سفر أو شبه ذلك.

ب- ومناسبة غير مباشرة ، بمعنى أنها ليست واقعة فعـــلاً ، وإنمـــا هى مجـــرد خواطـــر شـــعرية ، وســـرحة مـــن خيـــال الشـــاعر والأديب ، ولا يعز عليك إذاً أن تعبر عن هذه المناسبة بأنها تصـــور من الشاعر أو الأديب ، وانفعال بخياله الذى ناب منـــاب الحقيقـــة. والمباشرة غيض من فيض بالنســـبة للثانيـــة ، ومـــن الواضـــح أن المناسبة بقسميها محتملة الوجود فـــى الشـــعر والرســـالة والقصـــة والمقال ، والخطبة المميزة أما المرتجلة فالمناســـبة فيـــها الانفعـــال الملهم.

رابعا : تقسيم النص :

جرى كثير من شراح النصوص على أن يقسموا النص المــدروس مــن قصيــدة أو رســالة تشــتمل علــى عــدة أغــراض ، وجملــة مقاصد ، فيقولوا إن النص يشتمل علـــى غـــزل ، ومـــدح ، وفخـــر ، ووصف أو غير ذلك محددين بداية هذه الأغراض ونهايتها.

وقد يكون النص قائما على غرض واحـــد ، كـــالغزل وحـــده أو الوصف داخل هذا الغرض الواحد ، وفائدة هذا التقسيم الاســـتعانة بـــه لزيادة الوضوح وتجسيم ما فى النص من أفكار حتى لا يضل الـــدارس ولا ينسى جانباً منها.

والذى أميل إليه ، أن يفوض للدارس اللجوء إلى هذا التقســـيم أو العدول عنه فى القصـــائد القصـــار ، أو القصيـــدة التـــى لـــم تتعـــدد أغراضها ، وهو كذلك حر فى أن يفعل مثل ذلك أو لا يفعله فى الرســالة التى يدرسها إن كانت كذلك.

لكـــن الأجدى أن يترك النـــص القصيـــر أو ذا الغرض الواحـــد دون تقسيم لأن التقسيم قد يؤدى إلى تتبع هذه الجزئيات فيقال أنهـــا فـــى البيت الأول والثالث والشطر الأخير من الخامس ، وفى الجمل الثـــلاث الأولـــى مـــن الرسالة وفى الجملة السابعة ، والجملـــة العاشـــرة فـــى بعضها ما هو من هذه الفكـــرة ، وهذا تمزيق للنص لا طائل تحته.

خامسا : أن تضبط ألفاظ النص التى يوقع إغفال ضبطها فى اضطراب قد يكون من آثاره الفهم الخاطئ ، أو المعنى المختل ، وكم فى اللغة من ألفاظ يتغير معناها باختلاف حركات حروفها .

وقد ألف ابن مالك النحوى الأندلسى المتوفى سنة ٦٧٢هـ كتاب الألفاظ التى تختلف معانيها باختلاف حركات حروفها .

سادسا : أن تفسر الكلمات اللغوية لأن هذه الكلمات أوعية لمعانيها وقد يكون للكلمة الواحدة عدة معان وعلى الدارس إذا أن يوازن بين ما يصلح التفسير به وما لا يصلح ، بل عليه ، أن يختار من هذه المعانى الصالحة المتقاربة ما هو كالمتعين فى تفسير النص .

سابعا : أن تتولى شرح الأفكار التى يشتمل عليها النص ، وهذا العنصر من البحث ذو أهمية خاصة ، فهو مظهر جلى للقدرة على الفهم ، والغوص وراء المقصود من النص ،وهو كذلك مجال لتفاوت الكفايات فى التعبير الأدبى الدقيق ، وكلما استحضر الدارس فى ذهنه ما يتصدى له من مهمة وهى معالجة نص أدبى له إشراق وإحسان ، اجتهد فى أن يكون الأسلوب الذى يشرح به النص دقيقا موزونا بما يوزن به النفائس ، فليس شرح النص الأدبى مجرد محاولة تقريبية ، إنما هو فى الأصح مرآة مجلوة تعكس جوانب النص كلها فيستوى لدى القارئ أن يجد هذه التحفة الأدبية فى النص الذى جاءت فيه أو الشرح الذى شرحت به ، ولا يغيب عن الأذهان أن توقى الأساليب الراقية فى معالجة النصوص أمر لا غنى عنه ، وهذه الأساليب بمثابة الثوب الجميل للجسد الجميل .

ومن الخطأ الفنى فى شرح هذه الأفكار أن تعرض فى ترتيب لا يوافق ما جاءت علية فى النص ، فلا بد من عرض هذه الأفكار حسب تسلسلها فى القصيدة أو الرسالة أو الخطبة أو المقالة أو القصة ، ومقياس هذه المحاكاة أن تكون الحالة المنسوجة من الشرح كالملائمة تماما للحالة المنسوجة من النص لا زيادة ينتهى إليها ، ولا نقص ينحدر إليه .

ومن براعة الشرح مع ملاحظة هذا كله أن يجمع من الأفكار ما يكون حلقة متصلة تناثرت فى خلال النص مقوماتها .

فلو كان النص مشتملا على غزل ووصف وشاعت جزئيات الغزل بين أول النص وآخره وفى ثناياه ، لزم أن يضم شتاته ويؤلف بين ما تباعد منه ، وترجمة ذلك أن يجتذب الدارس ما تناثر من جزئيات الغرض ويؤلف بينها ، ويبرزها فى نسق متكامل .

ومن تمام التآلف بين الشرح والنص أن تقع – فيما أرى – كلمات قصيرة من النص فى أسلوب الشرح وأن يكون بينها وبين الشرح تمام المؤاخاة حتى كأنها جزء من النص ، وذلك لا يتيسر طبعا إلا إذا نقيت أساليب الدارس وارتقت عباراته ، وتم أعظم التجارب بينه وبين الأديب ونصه ، حينئذ تكاد النغمة أن تتحد ، والرونق أن يتماثل .

ثامنا : أن تناقش أفكار النص ، وهذا العمل أهم ما يناط بالدارس ، لأن هذه المناقشة حكم على النص ، أو لعلها عدة أحكام ، ومن ثم فهى مظهر للقدرة والدقة ، وأثر من آثار العقل ، وصورة للموازين الصحيحة التى لا يهتدى إليها إلا من اكتملت له مواهب عقلية وعلمية وأدبية ، ومن كان له مع ذلك ذوق بصير يمكنه من أن يحتكم إليه مع هذه المزايا .

وإنما كان حق المناقشة قاصرا علـــى مـــن توفـــرت لـــه هـــذه الخصائص ، لنضمن سلامة الكم ، ودقة المقاييس .

فالمقومات زمام يمسك به الدارس فلا يضل ، والتمكن من علـــوم العربية والوقوف على معايير النقد ، ضمان من فساد الحكم والزلل .

وينبغـــى ملاحظـــة أن الـــذوق موهبـــــة فطريـــــة ، وإدراك طبيعى ، يختلف باختلاف الأشـــخاص والبيئـــات ، ويتفـــاوت بتفـــاوت الظروف ، والتربية والجنس ، وكلما صحت مقومات الـــذوق صحـــت أحكامه ...)) .

وفى رأينـــا ورأى كثيـــر من النقـــاد أن الأدب يتكـــون مـــــن عناصر أربعة هـــى : (العاطفة ، والمعنى ، والخيال ، والأســـلوب)[١] ومعنى هذا أن أى لون من الألوان الأدبية لا بد وأن يشتمل علـــى هـــذه العناصر الأربعة ، ولا يمكن بأى حال من الأحوال أن يخلو من عنصـــر منها .

فالعاطفة تكشف عن ألم الشاعر أو الكاتب ، كمـــا تكشـــف عـــن شقائه ، وتعبر عنه أصدق تعبير وأقواه ، ومن هنـــا نـــدرك أن إثـــارة العواطف هى العنصر الظاهر فى الأدب .

وفى رأينا كذلك أن الأديب لا يعبر عن الحقيقة من حيـــث هـــى حقيقة ، بل من خلال إدراكه الوجدانى لها ،وإحساسه العاطفى بها ، فأى قوة تلك التى تمنح الشاعر القدرة على نقل الحقائق من واقع حسى إلـــى واقع جديد ؟[٢].

---

(١) انظر النقد الأدبى ، أحمد أمين : ٢٢/١ مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الرابعـــة ١٩٧٢م ،، وانظر كذلك أصول النقد الأدبى ، أحمد الشايب ص١٨٠ والمذاهب النقدية ، د/ ماهر حسن فـــهمى ص٩ .

(٢) انظر أصول النقد الأدبى ، أحمد الشايب ، ص٢١٠ وما بعدها .

فالخيال إذا هو الرابطـــة بيـــن عـــالم الشـــعور وعـــالم الإدراك والفهم ، وهو يستمد قوته فى كل الأحوال من العاطفة والوجدان ،وكلمـــا كان رصيد الأديب من العاطفة كبيرا استهوى النفوس بروعـــة خيالـــه وجدته ، وما نقولـــه عـــن العاطفـــة والخيـــال نقولـــه عـــن المعـــانى واللغة ، وغيرها من مقاييس النقد الأدبى .

ومهما يكن من أمر فهناك حقيقة ينبغى أن نشير إليها ، وهى أنـــه قد ظهرت فى العصر الحديث عدة مقـــاييس[١] ، كمـــا ظـــهرت علـــوم أسهمت إلى حد كبير فى توجيه الدراسات النقدية ، وكلـــها تســـهم فـــى عملية الإبداع ، كما تسهم فى التعرف على شخصية الأديب ، وتحديـــد إطارها على ضوء دراسة المواقف النفسية[٢] وهذا ما فطن إليه الدكتـــور محمد كامل الفقى حين تناول فى دراسته للخطوات التى تتبع فى دراســـة النص دراسة الحالة النفسية ، والحكم على التجربة الشعرية ، والعاطفـــة، والاحتكام إلى الذوق الخاص ، يقول[٣] :

" **دراسة الحال النفسية :**

ومع الاعتراف بضيق الوقت للطالب ، وما يثقل كاهله من مـــواد دراسية نجد من الضرورى فى دراسة النصوص الأدبيـــة ، أن نتلمـــس الحالة النفسية للأديب ، وأن نستشف ما عليه الأديـــب – مـــن خـــلال نصه – من رضا أو غضب ، ومن حب أو بغض ومن اطمئنان أو قلـــق

---

(١) راجع النقد الأدبى د/ سهير القلماوى ص٧٢ وما بعدها ، طبعة معهد الدراسات العربية العاليـة ١٩٥٥م ، ومقالات فى النقد الأدبى ، د/ رشاد رشدى ص٧ طبعـــة الأنجلـــو المصريـــة ١٩٦٢م ، والمذاهب النقدية د/ماهر حسن فهمى ص٢١ .

(٢) انظر التفسير النفسى الأدبى د/عز الدين اسماعيل ، والنقد الأدبى ومدارسه الحديثـــة ، تـــأليف ستانلى هايمن ، ترجمة د/إحسان عباس ومحمد يوسف نجم جـــ١ ص١٠ وما بعدها ، دار الثقافـــة بيروت ١٩٥٨م .

(٣) من عيون الأدب ، ص ١٦ – ٢٣ .

ومن إيمان أو اصطناع إيمان ، فإن الأديب يرتبط بالنص أوثق ارتباط ، لأنه مهما خدع أسلوبه ، لا تخفى حاله النفسية ،وما بين الأدب والنفس أغنى من أن يحتاج إلى بيان ، وقد يقول بعض الناس : إن الأدب يصنع النفس ، وقد يقول بعضهم : إن النفس تصنع الأدب ، ومهما يكن من شيء فبينهما علاقة أوثق علاقة ، والمنهج العلمى إنما يقوم على دراسة العلاقة بين الأديب ونفسه ، وبعض الباحثين المحدثين عنى بدراسة العلاقة بين البلاغة وعلم النفس ، وبعضهم كتب فى الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده ...

والحق أن السلوك فى دراسة النص الأدبى من الأهمية بمكان ، وإن كان محتاجا إلى جهد وبصر وروية[١].

الحكم على التجربة الشعرية :

ولا بد فى الحكم على النص الشعرى من التأمل فى التجربة الشعرية ،ومن التعرف على ما وصل إليه الشاعر من إحسان أو تخلف ، والتجربة الشعرية هى الحالة التى تلابس الشاعر ، وتهدى وجدانه إلى موضوع من الموضوعات ، من حادث أو مشهد فيعبر عما شهده أو تأمله تعبيرا يرسم مدى القيمة الفنية للشاعر ، ويلائم بين التجربة والصياغة ، والقيمة الفنية إنما تنحصر فى درجة التواؤم بين التجربة والصياغة ، أو بمعنى آخر فى اتساق الثوب الشعرى مع التجربة ، وتفصيله على قدها ، فلا يكون طويلا فضفاضا ، ولا قصيرا معريا .

---

(١) راجع كتاب التفسير النفسى للأدب للدكتور عز الدين إسماعيل .

ومن الشعراء من يعمد إلى الإطالة والاستطراد حتى تتضارب الخواطر ، ويشيع فى النص التناقض .

وقد كان الشعر القديم يتسم كثير منه بهذا الاستطراد ، بحيث لو حذفت بعض أبياته ما لمست نقصا ، لكن الشعراء المجددين ، وجدوا أنفسهم أمام مقاييس جديدة ، وصار الحكم على فنهم يعتمد على أسس منها هذه التجربة التى تميز بين شاعر وشاعر .

فالتجربة الشعرية الخليقة بالبقاء هى التى تتناول موضوعا عاما ، أو موضوعا إنسانيا مع جمال الأداء وجودة الصياغة .

وبمعنى آخر ، إن الشاعر العظيم الباقى هو الذى يتناول حقيقة من حقائق النفس الدائمة ، أو حقيقة من حقائق الوجود الخالدة فى تأدية بارعة محكمة [١].

العاطفة :

ومن مهمة الدارس أيضا أن يعرض لما فى النص من هذه القوة التى ينقلها وهى العاطفة ، والعاطفة أو الانفعال يراد بها نزوع الشاعر أو الأديب إلى موضوع أو فكرة أو مشاهدة تؤثر فيه تأثيرا قويا يدفعه إلى التعبير عن مشاعره والإفصاح عما يجرى بخواطره ، فالعاطفة الأدبية هى القوة التى يثيرها الأديب فى نفوس القراء .

والعاطفة متفاوتة فى النصوص ، تفاوتها فى نفوس أصحابها .

---

(١) راجع كتاب الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث لمصطفى عبد اللطيف السحرتى .

وواجب الدارس أن يحكم عليها فى النص من حيث منبعها الذى تدفقت منه ، ومن حيث الباعث عليها ومن حيث نوعها ومظهرها ...

وفى الحق أن صدق العاطفة وكذبها من الدقة واللطف بمكان ، فكم من نصوص تخدع عباراتها ، ويفتن أسلوبها ، ويعيا الباحث عن طريق الحق الذى ينفذ منه إلى الحكم الصادق ، وإن وجده فبعد لأى وصبر شديد .

الموسيقى :

وآخر ما يناط بدارس النص الأدبى أن يسمع إلى ما فيه من جمال الموسيقى وتناسق النغم ، وليس الشعراء بمثابة واحدة فى أنفاسهم الشعرية ، فمنهم من ينضح شدة بالحلاوة الموسيقية ، ومنهم من تتميز أنغامه بالإثارة والانفعال ، ومنهم من تتسم موسيقاه بالقعقعة والرنين ، وفيهم من لا تشعر بأية هزة حين تسمع شعره ، والشعر الذى يفقد موسيقاه يفقد أهم مقوماته ، وربما عد نظما لا شعرا ، والشاعر المبدع هو الذى يوجد التنسيق الموسيقى بين فقرات القصيدة جميعها ، ومن الجدير بالذكر التنبيه إلى أن اتباع الوحدة الموسيقية الكلية ، إنما يقصر على القصائد الغنائية أو الوجدانية وعلى القصائد القصار ، أما القصائد المطولة فقد يحلو التنوع الموسيقى فيها لأن من شأن ذلك أن يبعدها عن السآمة والملل[1].

---

(١) الشعر المعاصر .

ولكل قصيدة نغمتها الخاصة التى تتفق وحالة الشاعر النفسية ، ولكن لما كانت طبيعة بنية القصيدة من الناحية العروضية تقوم على تكرار الوحدة الوزنية المتمثلة فى البيت ، فقد صارت القصيدة كلها نغمة من لون واحد ، وصار من الصعب تنويع النغمة داخلها لارتباط الشاعر بالبنية العروضية لها .

وقد أجريت سلسلة طويلة من الدراسات التجريبية فى موضوع الأسلوب الشعرى بوساطة تسجيل الصوت تبين فيها أن الشكل الحقيقى لبيت الشعر ليس البحر المعروف ، ولكنه فى توزيع غير مطرد من النبرات العادية القوية والضعيفة ، مع وقفات أطول وأقصر ، مع صعود وهبوط فى الشدة الصوتية .

ولكل قصيدة نغمتها الخاصة التى تتفق وحالة الشاعر النفسية ، ولكن لما كانت طبيعة بنية القصيدة من الناحية العروضية تقوم على تكرار الوحدة الوزنية المتمثلة فى البيت ، فقد صارت القصيدة كلها نغمة من لون واحد ، وصار من الصعب تنويع النغمة داخلها لارتباط الشاعر بالبنية العروضية لها .

وقد أجريت سلسلة من الدراسات التجريبية فى موضوع الأسلوب الشعرى بوساطة تسجيل الصوت تبين فيها أن الشكل الحقيقى لبيت الشعر ليس البحر المعروف ، ولكنه فى توزيع غير مطرد من النبرات العادية القوية والضعيفة ، مع وقفات أطول وأقصر ، مع صعود وهبوط فى الشدة الصوتية .

وليس هنالك بحر مخصوص يتحتم على الشاعر أن ينظم فيه ليعبر عن انفعال خاص ، وتتبع جملة من القصائد يدل على أن الشعراء عبروا فى الوزن الواحد عن حالات انفعال مختلفة ، بل لقد عبروا عن حالات الحزن والبهجة فى الوزن نفسه.

وبعض الكاتبين يقسم الموسيقى الشعرية إلى قسمين : موسيقى خارجية ويحكمها العروض ، وموسيقى داخلية ويحكمها قيم صوتية باطنية ، وهى أرحب من الوزن والنظم المجردين .

وموضوعات الشعر تختلف فيها الموسيقى اختلافا بينا ، فالغزل يتطلب موسيقى تختلف عن موسيقى الوطنية وموسيقى الجهاد مثلا ، والأصوات تتفاوت فى قوتها ونغمتها وصفاتها وألوانها وانخفاضها وارتفاعها وكميتها ، فمن الموسيقى ما يمتاز بقوته وجمال تقطيعاته الصوتية ومنها ما يمتاز بالسرعة والسلاسة دون الحلاوة الإيقاعية وأفضل موسيقى الشعر ماساير موضوع القصيد ، وخيرها ما تمشى مع الأفكار وتساوق مع المعانى . وتجاوبت ألوان نغماته ونبراته مع حالات النفس .

فالشاعر فى حال اهتياجه وغضبه وغيظه يكون تعبيره الموسيقى عالى النغمة ، وفى حزنه يكون منخفض النغمة ، وفى تعجبه وفرحه وهدوئه واطمئنانه تكون المسافات الصوتية قصيرة ، أما فى بثه وألمه فتكون مسافات الصوت طويلة ، وهكذا تساير النغمات حالات النفس ، كما تساير موضوع القصيد وفكرته[١].

---

(١) الشعر المعاصر .

والذوق يختلف باختلاف أصحابه ولكن الذوق وحده ليس كافيا فى التمييز بين هذه الألوان ، ويجب أن يضاف إليه كل ما يقرره النقاد من مقاييس .

هذا وقد أدرك الشعراء المعاصرون أهمية التشكيل الموسيقى للقصيدة من حيث أثرة القوى فى تقديم صورة صادقة ، ومؤثرة ، لوجداناتهم المختلفة ، فحاولوا أن يخرجوا من إطار الشكل القديم للقصيدة إلى شكل جديد تكون الموسيقية للقصيدة خاضعة خضوعا مباشرا للحالة النفسية أو الشعورية التى يصدر عنها الشاعر ، وبهذا تصبح القصيدة صورة موسيقية كاملة تتلاقى فيها الأنغام وتفترق محدثة نوعا من الإيقاع الكلى الذى يترك فى نفس المتلقى أثره .

وملاحظة النغمة العامة للأسلوب ، والتيار الصوتى الذى يجب أن يطرد فى غير قسوة ولا ملل ، غاية لا بد أن يتوخاها الأديب .

والأدب بأنواعه قائم على هذا النغم الذى يحقق الجمال والأخذ ، غير أنه فى الشعر أقوى وأوضح منه فى النثر ، وهو فى الشعر الوجدانى أكثر لزوما وأشد ارتباطا .

قد يقول : إن الوزن والقافية صاحبا الأثر فى موسيقى الشعر ، فما الذى جلب الموسيقى للنثر ؟

قلنا إن الموسيقى فى النثر من خلوه من الكلمات المتنافرة الحروف .

ونقائه من العبارات والكلمات والجمل التى تؤدى إلى تنافر ما .

والتنويع فى النغم يزيده قبولا .

وقصر الفقر والمزاوجة كذلك من الأسباب التى تزيد فى موسيقى النثر.

والتكرار قد يساعد على إضفاء الموسيقى فى النثر .

ويلاحظ أن الموسيقى متفاوتة بتفاوت الغرض الأدبى ، فهى صاخبة فى الفخر والحماسة هادئة رقيقة فى الغزل ، حزينة فى الرثاء والشكوى .ولا نظن أن اختيار بحر من بحور الشعر ، فى غرض من الأغراض يحدث من الموسيقى ما يمنع من استعماله فى غرض آخر .

فالطويل مثلا ، استعمل فى النسيب ، والفخر ، والهجاء ، والرثاء ، وغيرها .

وآخر ما أنبه إليه من مقاييس الموسيقى غير منضبطة ، لأنها تعتمد على الذوق ، والذوق مختلف ،وللناس فيما يعشقون مذاهب ..."

نماذج من الشعر فى العصر الأموى

أولا : قصيدة فى الغزل للشاعر

عمر بن أبى ربيعة

١- أمـــن آل نعـــم أنـــت غـــاد فمبكـــر ۞ غداة غد أم رائـــح فـــمـــهـــجـــر ؟[١]

٢- بحاجة نفس لـــم تقـــل فى جوابـــها ۞ فـــتبلـــغ عـــذرا والمقالـــة تعـــذر[٢]

٣- تهيم إلى نعم فلا الشمـــل جـــامـــع ۞ ولا الحبل موصول و لا القلب مقصور

٤- ولا قرب نعـــم إن دنـــت لك نافـــع ۞ ولا نأيـــها يســـلى ولا أنـــت تصبـــر

٥- وأخرى أتـــت من دون نعـــم ومثلها ۞ نهـــى ذا النهى لو ترعوى أو تفكـــر

٦- إذا زرت نعمـــا لـــم يزل ذو قرابـــة ۞ لـــهـــا كـــلـــمـــا لاقيتـــها يتنـــمـــر

٧- عزيـــز عـــليـــه أن ألـــم ببيـــتـــها ۞ يســـر لـــى الشحناء و البغض مظهر

٨- ألكـــنى إليـــها بـــالســـلام فـــإنـــه ۞ يشـــهـــر إلمـــامـــى بها و ينكـــر[٣]

٩- بآيـــة مـــا قالـــت غـــداة لـــقيتـــها ۞ بمـــدفـــع أكنـــان أهـــذا المشهـــر؟

١٠-قفـــى فانظـــرى أسماء هل تعرفينه؟ ۞ أهـــذا المغيـــرى الذى كان يذكـــر؟[٤]

١١-أهذا الـــذى أطريـــت نعتـــا فلم أكن ۞ وعيشـــك أنســـاه إلى يـــوم أقبـــر[٥]

١٢-فقالـــت نعـــم لا شـــك غيـــر لونـــه ۞ ســـرى الليل يحيى نصه والتهجر[٦]

١٣-لئـــن كـــان إياه لقـــد حـــال بعدنـــا ۞ عن العهد والإنســـان قد يتـــغيـــر[٧]

---

(١) نعم : إحدى محبوبات عمر ، ويجوز أن يكون هذا الاسم غير حقيقى وإنما تكنى به عن بعض من تغزل فيهن حتى لا يفتضح أمرهن معه . الرائح : السائر فى الرواح وهو وقت العشى أو من الزوال إلى الليل . المهجر : السائر فى وقت الهاجرة .

(٢) بحاجة نفس وروى (لحاجة نفس) والمقصود : رغبة فى نفسك . ولم تقل فى جوابها : أى لم تقل شيئاً فى إجابة السؤال عنها أى أنه كتمها عن كل من يسأل عنها

(٣) ألكنى : كن رسولى واحمل رسائلى.

(٤) المغيرى : أى عمر نسبة إلى المغيرة جد أبيه .

(٥) أطريت مدحاً : أحسنت وصفاً – وعيشك : قسم بحياتها ، أقبر : أدفن فى القبر (أموت)

(٦) سرى الليل : السير فيه ، يحيى نصه : يحيى إسراعه فى السير ليلاً.

(٧) حال بعدنا : تغير بعد رؤيتنا إياه .

١٤-رأت رجـــلا أمـــا إذا الـشـمـــس عارضت ✿ فيضحى وأما بالعشى فيخصر [١]

١٥-أخـا سفـر جـواب أرض تقـاذفـت ✿ بـه فلوات فهـو أشعث أغبر [٢]

١٦-قـليـل على ظهـر المـطيـة ظلـه ✿ سوى ما نفى عنه الرداء المحبر

١٧-وأعجبـها من عيشـها ظـل غرفـة ✿ و ريان ملتـف الحدائق أخضـر

١٨-ووال كـفـاهـا كـل شـئ يهمهـا ✿ فليست لشىء آخر الليل تسهـر

١٩-وليـلة ذى دوران جشمتنـى السرى ✿ وقد يجشم الهول المحب المغرر [٣]

٢٠-فـبـت رقيـبـا للرفاق على شفـا ✿ أحاذر منهـم من يطوف وانظر [٤]

٢١-إليهـم متى يستمكـن النوم منـهـم ✿ ولى مجلس لولا اللبانة أوعـر [٥]

٢٢-وباتـت قلوصـى بالعراء ورحلـها ✿ لطارق ليل أو لمن جاء معـور [٦]

٢٣-وبـت أناجى النفـس أين خبـاؤهـا ✿ وكيف لم آتى من الأمر مصدر [٧]

٢٤-فـدل عليها القلـب ريـا عرفتـها ✿ لها وهوى النفس الذى كاد يظهر [٨]

٢٥-فلمـا فقدت الصوت منهـم وأطفئـت ✿ مصابيح شبت بالعشاء وأنـؤر [٩]

٢٦-وغـاب قمير كنـت أهـوى غيوبـه ✿ وروح رعيـان ونـوم سمـر [١٠]

---

(١) عارضت : قابلت وواجهت – يضحى : يتعرض للشمس ، يخصر : يشتد به البرد .

(٢) جواب : صيغة مبالغة من جاب بمعنى قطع .

(٣) ذى دوران : اسم موضع ، جشمتنى السرى : حملتنى مشقة السير ليلا ، وجشم يجشم وتجشمه : تكلـف الأمر على مشقة . الهول : المخوف ، المغرر : المخدوع الذى يعرض نفسه للهلاك .

(٤) شفا : حافة وحرف ، ومعنى على شفا : أى على حذر وتربص .

(٥) لولا اللبانة : لولا الحاجة ، أوعر : شاق وصعب .

(٦) قلوصى : ناقتى ، الرحل : مركب الناقة كالسرج للفرس ، طارق الليل : آت فى الليل ، معور : ظـاهر واضح من أعور بمعنى ظهر .

(٧) أناجى النفس : أحدثها سرا .

(٨) الريا : الرائحة الذكية ، هوى النفس : حب النفس .

(٩) فقدت الصوت : انقطع وصوله إلى ، شبت :أوقدت ، العشاء : بعد المغرب . الأنؤر : النيران ومفردها نار وأصل الجمع أنور وهمزت الواو فصارت الكلمة على ما هى عليه .

(١٠) قمير : قمر صغير ، روح رعيان : عادوا إلى بيوتهم .

٢٧-وخفض عنى الصوت أقبلت مشية الحباب ✿ وشخصــى خشية القوم أزور[١]

٢٨- فحيــيــت إذ فاجــأتــها فــتولــهــت ✿ وكادت بمخصوص التحية تجهر[٢]

٢٩- وقالت وعضــت بالبنــان فضحــتنــى ✿ و أنت امرؤ ميسور أمرك أعسر

٣٠- أريتــك إذ هنــا عليــك ألــم تخــف؟ ✿ وقيت وحولى من عدوك حضر[٣]

٣١- فوالله مــا أدرى أتعــجيــل حــاجــة ✿ سرت بك أم قد نام من كنت تحذر

٣٢- فقلت لها بل قادنى الشــوق والهــوى ✿ إليك و ما نفس من الناس تشعر

٣٣- فقالــت وقــد لانــت و أفرخ روعــها ✿ كــلاك بحفــظ ربك المتكبــر[٤]

٣٤- فأنــت أبــا الخطــاب غيــر مدافــع ✿ علــى أمير ما مكثت مؤمــر[٥]

٣٥- فيالــك من ليــل تقــاصــر طــولــه ✿ و مــا كان ليلى قبل ذلك يقصر

٣٦- و يالــك من ملهــى هنــاك ومجلــس ✿ لنــا لــم يكــدره علينــا مكدر

٣٧- يمــج ذكــى المســك منــها مقبــل ✿ نقى الثنايا ذو غروب مؤشر[٦]

٣٨- تــراه إذا مــا افتــر عنــه كــأنــه ✿ حصــى برد أو أقحوان منور[٧]

---

(١) مشية الحباب أى كما تمشي الحية ، وشخصى أزور أى وجسمى مائل خشية أن يرانى أحد .

(٢) تولهت : أظهرت الوله ، وهو الحيرة والحزن من شدة الوجد ، محفوض التحية : الذى يسر منها ولا يعلن .

(٣) أريتك : قل لى وأخبرنى ، وأصلها : أرأيتك . هنا عليك : سهلنا عليك ، وقيت : دعاء له بالوقاية من الأذى ، العدو : يقال للواحد وللجمع .

(٤) لانت : استجابت له . أفرخ روعها : ذهب خوفها وهدأت نفسها . كلاك : حفظك وحرسك وأصلها كلأك فقلبت الهمزة ألفا لانفتاح ما قبلها وذلك للتخفيف .

(٥) أبو الخطاب : كنية عمر ، وهو منادى محذوف الأداة ، غير مدافع : غير منازع ، مكثت :أقمــت مؤمر : أى لك الأمر والسيادة على .

(٦) يمج ذكى المسك : يقذف بالرائحة الطيبة ، المقبل : الفم وهو موضع التقبيل ، الثنايا : الأسنان الأربــع التى فى مقدم الفم ثنتان من أعلى وثنتان من أسفل ، ذو غروب : ممتلئ بالرحيق والرضـــاب ومؤشــر : أى أسنانه محززه ومحرفة خلقة أو صنعة للتجميل .

(٧) إذا ما افتر عنه : أى إذا ما كشفت عنه بالابتسام ، حصى برد : حبات المطر التى تنزل نقيــة بيضاء ، أقحوان منور : نبت طيب الرائحة به أزهار .

٣٩- وترنــو بعينيــها إلى كما رنــا ✿ إلــى ظبية وسط الخميلة جــؤذر[١]
٤٠- فلمــا تقضـــى الليــل إلا أقلــه ✿ وكــادت توالـــى نجمـــه تتغــور[٢]
٤١- أشارت بأن الحى قد حان منهم ✿ هبوب ولكن موعــد منك عزور[٣]
٤٢- فما راعنـــى إلا منــاد ترحلــوا ✿ وقــد لاح معروف من الصبح أشقر
٤٣- فلما رأت من قــد تنبــه منهــم ✿ وأيقــاظهم قالت أشر كيف تأمر؟
٤٤- فقلت أباديهــم فإمــا أفــوتهــم ✿ وإمــا ينــال السيف ثأرا فيثــأر[٤]
٤٥- فقالت أتحقيقا لمــا قال كاشــح ✿ علينــا وتصديقــا لما كان يؤثر[٥]
٤٦- فإن كان ما لا بد منــه فغيــرد ✿ من الأمــر أدنى للخفــاء و أستــر
٤٧- أقص على أختـــى بدء حديــثنــا ✿ ومالـــى من أن تعلمــا متــأخــر
٤٨- لعلهـــما أن تطلبــا لك مخرجــا ✿ وأن ترحبا سربا بما كنت أحصر[٦]
٤٩- فقامت كئيبا ليس فى وجهها دم ✿ من الحـــزن تذرى عبرة تتحدر[٧]
٥٠- فقـــامــت إليها حرتان عليهـــما ✿ كســاءان من خز دمقس وأخضــر

---

(١) ترنو : تنظر ، الخميلة : الشجر الكثيف الملتف ، الجؤذر : ولد الظبية أو البقرة الوحشية .

(٢) توالى نجمه : نجومه المتبقية من إضافة الصفة إلى الموصوف ، تتغور : تنحدر وتغيب .

(٣) الحى : البطن من بطون القوم . حان : قرب . هبوب : تيقظ من النوم . عزور: اسم موضـــع بين مكة والمدينة.

(٤) أباديهم : أبدو وأظهر وأتصدى لهم بالمبارزة . أفوتهم : أسبقهم وأنجو منـــهم . الثـــأر : الـــدم والطلب به . فيثأر : فيدرك طلبه بالدم .

(٥) الكاشح : العدو الذى يبطن العداوة . يؤثر : يروى ويعرف ويقال .

(٦) ترحبا : تتسعا ، سربا : نفسا وصدرا ، أحصر : أضيق به .

(٧) كئيبا : منكسرة من الغم . تذرى عبرة : تذرف دمعة . تتحدر : تسيل على الوجه .

**تعريف موجز بالشاعر :

ولد عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة عام ٢٣ للهجرة ، وكـــانت ولادته فى بيت قرشى واسع الثراء ، هو بيت بنى مخزوم[١].

وأسرة عمر ذات ثراء وجاه ، فأبوه فـــى الـــذروة مـــن قومـــه ثراء ، وجده الذى ينسب إليه وهو أبو ربيعة كان رجلاً شجاعاً ، وكـــان له أخوان معروفان فى تاريخ قريش هما هشام بن المغيرة والوليـــد بـــن المغيرة .

وعمر شاعر مكى ، فيها ولد ، وبها نشأ ، ومع ما يقال ويذكـــر حوله من روايات ومغامرات فقد كان مسلماً متأثراً بالإسلام ، وقد توفـــى سنة ثلاث وتسعين من الهجرة بعد سبعين عامـــاً قضاهـــا فـــى الغـــزل الصريح ، أعانه على ذلك ثراؤه ، وأن الدنيا مشرقة باسمة دائمـــا مـــن حوله ، والمغنون والمغنيات من أهل مكة يعيشون فى ظلاله، ويتغنـــون بشعره ، وكان أهل مكة يلتفون حولهم ليستمعوا إلى شعر ابن أبى ربيعة فى البيوت تارة ، وفى الضواحى تارة أخرى.

وابن أبى ربيعة فى غزله يخضع ملكاته لفن الغناء ، وفى ذلـــك يقول الدكتور شوقى ضيف[٢] :

"وهو فى غزله يخضع ملكاته لفن الغناء الـــذى عـــاصره ، إذ يستخدم الأوزان الخفيفة والمجزوءة ، حتى يحملها المغنون والمغنيـــات ما يريدون من ألحان وإيقاعات ، كما يستخدم لغة سهلة ، فيـــها عذوبـــة

---

(١) تاريخ الأدب العربى (العصر الإسلامى) د/ شوقى ضيف ص٣٤٩ دار المعارف ط٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٥٠ .

وحلاوة ، حتى تفسح لهم فى روعة النغم ، ونراه لا يصطنع أى ثـــوب من ثياب التكلف ، بل يظهرنا على حقيقته فى غزله ، وأنـــــه لا يــزال يتخذ الشباك لكل امرأة جميلة فى مكة ، وتحول إلى مواسم الحج يعلـــن حبه إعلاناً لكل امرأة ذات حسن يلقاها"

ولقد قصر عمر شعره على وصف النساء ، وينـــدر أن ينطلــق بفنه الشعرى بعيدا عن الغزل ؛ ولذلك أكثر المؤلفــون الحديــث حــول إسرافه ولهوه ومجونه ، وألفت فى ذلك روايات عديدة ، لكن الدكتـــور طه حسين ينتصف له ، ويعده فى منزلة وسطى بين شـــعراء المجــون والشعراء المعتدلين(١) ، وهذا هو الرأى الذى نميل إليه ، ونــراه أجــدر بالقبول والاستحسان.

**الدراسة الفنية :

هذه قصيدة غزل لشاعر يلهج بصبابته وحبه ، وما يذوق من وجد وألم ، إنه شاعر يصف حالته بأفكار منتظمـــة ، مترابطـــة ، متتابعـــة، ويتلطف مع صاحبته ، مستعطفا ، متضرعا ، ملحا علـــى أن تواصلـــه بودها ، يساعده فـــى ذلـــك ســـهولة الألفـــاظ ، وانســـيابها، وســـلامة التركيب ، وبعد الشاعر عن التعقيد .

والأبيات من (١-٩) استهلال وتقديم ، يبدأ الشـــاعر بمخاطبـــة نفسه على عادة الشعراء، ويذكر أنه لم يحدث أحداً بما فى نفســـه مـــن صبابة وحب وألم ، وحيرة وشقاء ، حتـــى إذا مـــا عجـــز يلجـــأ إلـــى رسوله ، فيطلب منه أن يحمل رسائله .

---

(١) انظر حديث الأربعاء : ٣٠٨/١ ط دار المعارف .

والأبيات من (١٠-١٨) تتحدث عن صفاته التي جعلته معشوقا لا عاشقا ، يوقد قلوب الفتيات حبا ، حتى إنهن ليتمنين عطفه وحنانه ، كل ذلك في حوار قصصي ، وفي موازنة بين حاله وحال محبوبته ، وذلك هو أهم ما يطبع غزل الشاعر .

والأبيات من (١٩-٣٩) تصور الصعوبات التي تحملها الشاعر في الوصول إلى محبوبته ، ثم تصور مغامرته الليلية ، وكأنه في ذلك يحاكي شاعر الجاهلية امرأ القيس مع الفارق ، والشاعر في كل هذه المغامرة يطلب ويأمل ، ويعلن العشق والهيام ، ويصور أيضا ما يوقد به قلوب النساء من العشق والصبابة .

وهو في أثناء ذلك يناجي ليله ، ويصور محبوبته تصويراً تقليدياً يكشف عن عواطفه تجاهها ، وما يتعمقه من رقائق الحب ، وما يثير في قلبه من المشاعر الرقيقة .

وفي بقية الأبيات يواصل الشاعر قصته الغزلية ، ويعلن تألمه من الوشاة والهجر ، ثم يختم الأبيات بوصف الناقة ، وما تحملته من مشقات السفر ، حتى خف لحمها ، وذهب شحمها ، وتلك عادة لا يختلف فيها الغزل الجديد في عصر بني أمية عن الغزل الجاهلي القديم.

ومهما قيل عن هذه القصيدة من أن الشاعر قد تغير فيها وتطور فنحن لا ننكر أن نفسه فيها قد طال على غير عادته ، وعذره في ذلك أن القصيدة عبارة عن قصة غزلية يحكي فيها الشاعر تجربة من تجاربه في الحب في بيئة تغيرت كثيراً عما كان في حياة العرب قبل ، فلقد تحضر أهل العصر ، وجد على حياتهم ما جد عليها من ألوان النعمة والترف .

والشاعر يخضع فى غزله لفن الغناء الذى عاصره ، فينوع فـــى أساليبه بين الإنشاء والخبر ، ويستخدم الألفاظ الموحية المعبرة التـــى لا تنحدر إلى جفاوة البادية وغلظة الأعراب ، ويأتى بالتجريد الذى يلائـــم أسلوب الحوار الذى بنيت عليه القصيدة .

وعلى هذا النحو نراه يطوع بحره الشعرى ليواكب جوه النفســى من جهة ، والألفاظ والتراكيب من جهة أخرى ، ونراه يأتى فى بعـــض الأبيات بحسن التقسيم ليعبر عما يجيش به فؤاده ، وما يتحـــرك داخـــل وجدانه .

ولو ذهبنا نلتمس الظواهر الفنية من خلال ما جاء بـــه الشـــاعر فى قصيدته لوجدنا كثيرا منها ، فهو يكـــثر مـــن اســـتخدام الأســـاليب الخبرية لأغراض مختلفة ، ويأتى بالأساليب الإنشائية التى تتـــلاءم مـــع الحوار ، ويستعين بالألفاظ والجمـــل الموحيـــة ، ويـــأتى بـــالأغراض البلاغية حسبما يقتضى الحال ، فى أسلوب قصصى تكتمـــل فيـــه كـــل المقومات الفنية ، ويتلاءم مع الجو الشعورى والحالـــة النفســـية ، هـــذا فضلاً عن استقصاء الصور ، والإلمام بالتفاصيل والجزئيات ، والتعبـــير عن العصر والبيئة، والنفاذ إلى خوالج النفس ، لدرجـــة جعلـــت هـــذه القصيدة تحظى باهتمام الدارسين من متذوقى الأدب ودارسيه .

ثانيا الأخطل فى المديح والحرب والفروسية

لقد اتسع شعر المديح والهجاء بحيث استحوذ علـــى أكـــثر مـــن نصف الشعر المعروف فى عصر بنى أمية ، وذلك لأن السياسة – كمـــا سبق أن قلنا – كانت هى المحور الذى تدور حوله الحيـــاة فـــى ذلـــك الزمن ، وكانت شغل الخلفاء الشاغل ، وعمل رجال دولتهم وأعوانـــهم ومن يتعصبون لهم ، ومن يناوئونهم ولا يرون رأيهم ، أو لا يرتضـــون حكمهم ، وكان الشعر يدور محوره حول التنويه بفضل الحـــزب الـــذى يدافع عنه الشاعر ويمجده .. ذلك هو شعر المدح ، وكان يغلـــب علـــى أصحاب هذا اللون من الشعر أنهم لا يكتفـــون بمـــدح الطـــرف الـــذى ينحازون إليه ، ويقفون بجانبه ، ويدافعون عنه ، وإنما يتجاوزون ذلـــك إلى ذم الخصوم ، أو النيل منهم والزراية بهم .

ولا نستطيع القول فى هذا المجال أن هؤلاء الشعراء قدمـــوا فنـــا خاصا بالحرب والفروسية ؛ إذ لم يكن من خطتهم أن يفعلوا ذلك وإنمـــا جاء هذا وذاك ضمن مديحهم وهجائهم ، وكان المديح والهجاء عندهـــم وفقا لعقيدتهم الدينية التى يعملون من أجلـــها ،وفـــى إطـــار الأهـــداف السياسية التى يسعون لتحقيقها .

وهذا اللون يتضح عند (الأخطل والفرزدق وجرير) ، أشعر أهـــل العصر الأموى ، وخير من يمثل العصر ، ثم إن شعرهم قد ذهـــب – أو كاد – فى تدبيج قصيدتى المديح والـــهجاء[1] ، وكـــانوا يمدحـــون أو يهجون بما يتفق وطبيعة الخلفاء ورجال الدولة . وكان رجـــال الدولـــة الأموية من قوم لهم أرومة فى الشجاعة ومهارة فى الحـــرب وبراعـــة فىالكر والفر ، بل إنهم عشقوا الحرب هاموا بـــها ، وعـــاش بعضـــهم ممتطيا صهوة جواده ، ممتشقا حســـامه ، يقـــود الجيـــوش ويخـــوض المعامع.

---

(١) التطور والتجديد فى الشعر الأموى د.شوقى ضيف : ١٣١. دار المعارف ط٦ .

فإذا كانت هذه طبيعتهم من حب للحرب وعشق للشجاعة وابتهاج بالمدح وهيام بذم خصومهم ، أدركنا أنه من الطبيعى أن يتضمن الشعر المتصل بهم لونا جديدا يتلاءم مع رغباتهم ويتمشى وهذه الحياة السياسية المصبوغة بصبغة حربية ، من معارك فيها نصر أحيانا وهزيمة أحيانا أخرى . فإذا كان نصر وصف الشعراء المواقع والتحام الجيوش واقتحام الصفوف . وإذا ما كانت هزيمة حاول الشعراء أن يخففوا من وطأتها ، وأن يلتمسوا العذر ويهونوا من شأنها .

وقد اقتصر شعر الأخطل فى مستهل عهده به على الهجاء وظل على هذا فترة حتى أسعفته الحياة الحزبية العنيفة ، فأوحت إليه شعرا جديدا أخذ يمجد فيه البطولة ويباركها ، ويصف الوقائع ودقائقها ، ولعله أكثر من صاحبيه (الفرذدق وجرير) وصفا للحرب وذكرا للقتال .

وقصائده فى عبد الملك بن مروان تفيض بأوصاف الحرب والفروسية ، ففيها يهجو الخصوم ، ويعرض بهم فى التقهقر والهرب ويفخر بالعفو عنهم ، كما أنها سجل لتمجيد قومه والإشادة بمآثرهم وهذا شيء طبيعى ، فالأخطل كان لا يزال مأخوذا بهموم قبيلته وقد ابتلاه دهره بالغزوة ، فتوسط الحرب بين قومه بنى تغلب وقبائل القيسية .

وقصيدته التى عنوانها "خف القطين" والتى مدح فيها عبد الملك ابن مروان فيها تجاوز للمدح إلى الفخر والهجاء ، وإن شئت فقل إنها تعد مثالا لشعر الحرب والفروسية الذى سكبه الشاعر على الأمويين بصفة عامة ، وعلى عبد الملك بن مروان بصفة خاصة .

ومنها يقول :

١- خف القطين فراحوا منك أو بكروا ۞ وأزعجتهم نوى فى صرفها غيـــــر(١)

٢- كأنـــنى شارب يوم استبـــد بهـــم ۞ من قرقف ضمنتها حمص أو جـــدر(٢)

٣- لذ أصلـــبت حميـــاهـــا مقـــاتلـــه ۞ فلم تكد تنجلى عـــن قلبـــه الخمـــر(٣)

٤- كأننى ذاك أو ذو لوعـــة خبـــلت ۞ أوصاله أو أصابـــت قلبـــه النشـــر(٤)

٥- حثـــوا المطـــى فولتنـــا مناكبهـــا ۞ وفى الخدور إذا باغمتـــها الصـــور(٥)

٦- مـــا يرعوين إلـــى داع لحاجتـــه ۞ ولا لهـــن إلـــى ذى شيبـــة وطـــر(٦)

٧- إلى امـــرئ لا تعدينـــا نوافـــلـــه ۞ أظفـــره الله فليهـــنـــأ لـــه الظفـــر(٧)

٨- الخائض الغمر الميمـــون طائـــره ۞ خليفـــة الله يستسقـــى بـــه المطـــر(٨)

---

(١) خف : ارتحل وأسرع ، القطين : اهل الدار المقيمون ، راحوا : ذهبوا فى وقت الرواح وهـــو العشاء أو من الزوال إلى ال[illegible] النوى : النية ، وتأتى بمعنى البعد ، غير الدهر : أحداثه ومصائبه.

(٢) استبد بهم : غلبوا على أمرهم ، قرفت : خمر ، حمص وجدر : بلدان بالشام (سوريا الآن) وقيل الثانية بالأردن وهما معروفتان بإجادة صنعة الخمر .

(٣) اللذ : الرجل الحلو الحديث ، حمياها : حدتها ، المقاتل : المواضع التى إذا أصيب الإنسان فيها قتل ، الخمر : جمع خمرة والمقصود آثارها من الألم والأذى .

(٤) اللوعة : الحزن ، خبلت : أفسدت ، النشر : جمع نشرة وهى الرقية ، والمقصـــــود بالنشـــر : الأمراض التى تتداوى بها .

(٥) حثوا : حضوا ، المطى : روى المطايا بدلا منها ، الخدور : الهوادج ، باغمتـــها : كلمتـــها ، الصور : الجوارى المصورة فى أحسن صورة .

(٦) يرعوين : يرجعن .

(٧) لا تعدينا : لا تنقطع عنا ، النوافل : العطايا .

(٨) الغمر: الماء الكثير، والمقصود هنا المعارك، الميمون طائره : المبارك الموفق، يستســـقى بـــه المطر: يذكر اسمه عند طلب المطر فيجيب الله الدعاء إكراما له .

٩- والمستمر به أمـر الجميـع فمـا ۞ يغتـره بعـد توكيـد لـه غـرر [١]

١٠- وما الفرات إذا جاشـت حواليـه ۞ فى حافتيه ، وفى أوساطها العشـر [٢]

١١- وذعذعته رياح الصيف واضطربت ۞ فوق الجآجـئ من آذيه غـدر [٣]

١٢- مسحنفر من جبال الروم يستـره ۞ منهـا أكافيـف فـيها دونـه زور [٤]

١٣- يوما-بأجود منـه حيـن تسأله ۞ ولا بأجهـر منه حين يجتهر [٥]

١٤- مقـدم مائـتى ألـف لمنـزلـه ۞ ما إن رأى مثلهم جن ولا بشـر

١٥- يغشى القناطر ، يبنيها ويهدمها ۞ مسـوم فوقـه الرايات والقتـر [٦]

١٦- حتى يكون له بالطـف ملحمـة ۞ وبالثـوية لم ينبض بها وتـر [٧]

١٧- وتستبـين لأقـوام ضلالتهـم ۞ ويستقيم الذى فى خده صعـر [٨]

١٨- ثم استقل بأثقال العراق وقد ۞ كانت له نقمة فيهم ومدخر [١]

---

(١) المستمر به أمر الجميع : الذى تقوى به وحدتهم ، يغتره : يخدعه ، غرر : خادع.

(٢) جاشت : أضربت ، الحوالب : الأمواج ، العشر : شجر .

(٣) ذعذعته : حركت مياهه تحريكا شديدا ، الجآجئ : جمع جؤجؤ وهو صدر السفينه أو الطـائر . الآذى : موجه المرتفع ، الغدر : جمع غدير وهو مجرى الماء الصغير.

(٤) المسحنفر : السريع الجرى ، الأكافيف : الجوانب المرتفعة فى أعراض الجبل ، الزور : الميـل والإعوجاج .

(٥) بأجهر منه : بأروع منه حسنا ، يجتهر : يستعظم .

(٦) مسوم : الذى فيه علامة تميزه ، القتر : الغبار .

(٧) الطف والثوى : موضعان بالقرب من الكوفة ، لم ينبض بها وتر : لم يرم بها نبل ، فهى حرب صعبة لم تبدأ بالسهام وإنما فيها التحام بالسيوف والرماح .

(٨) الصعر : ميل الخد عن النظر إلى الناس ، تهاونا وتكبرا .

١٩- فى نبعة من قريش يعصبون بها ❁ مـــا إن يوازى بأعلى نبتها الشجر [١]

٢٠-تعلو الهضاب وحلوا فى أرومتها ❁ أهل الرباء وأهل الفخر إن فخـــروا[٢]

٢١-حشد على الحق عيافو الخنا أنف ❁ إذا ألمت بهم مكروهـــة صبـــروا [٣]

٢٢-فإن تدجت على الآفاق مظلمة ❁ كان لهم مخرج منهـــا و معتصـــر [٤]

٢٣-أعطاهم الله جدا ينصـــرون بـــه ❁ لا جـــد إلا صغيـــر بعـــد محتـــقـــر [٥]

٢٤-لم يأشروا فيه إذا كانوا مواليـــه ❁ ولا يكون لقوم غيرهـــم أشـــروا [٦]

٢٥-شمس العداوة حتـــى يستقادلهم ❁ وأعظم النـــاس أحلاما إذا قـــدروا [٧]

٢٦-لا يستقل ذو الأضغان حربهـــم ❁ ولا يبين فى عيدانهم خـــور[٨]

٢٧-هم الذين يبـــارون الرياح إذا ❁ قل الطعام على العافين أو قتروا[٩]

([١]) النبعة : شجرة صلبة ، والمقصود : الأصل ، يعصبون بها : يحيطون بها ويعتزون بعصبيتها ، يوازى : يحازى .

([٢]) الهضاب : الجبال العالية . والمقصود أن هذه النبعة بنيت فوق الجبال فلا يوازيها فى علوها شئ . أهل الرباء : أهل الفضل والمنه .

([٣]) حشد : مجتمعون متأهبون . عيافو الخنا : كارهو الفحش كراهة شديدة ، أنف : جمع أنوف وهـــو الأبى الذى يرفض الذل .

([٤]) تدجت : أظلمت والدياجى : الظلمات ، مظلمة : شدة ، معتصر : منفذ وملجأ .

([٥]) الجد : الحظ .

([٦]) لم يأشروا : لم يبطروا . مواليه : أصحابه .

([٧]) شمس : جمع شموس وهو الفرس الصعب القياد ، يستقاد لهم : يؤخذ حقهم ممن إعتدى عليهم .

([٨]) يستقل الشئ : يعده قليلا ويستهين به ومعنى لا يستقل : لا يحتمل ، فـــى عيدانـــهم خـــور : فـــى أجسامهم ضعف .

([٩]) يبارون : يسابقون ، العافون : الذين يطلبون القوت ومفرده العافى ، قتروا : افتقروا وضيعوا على أنفسهم .

٢٨-بني أميــة نعمـــاكم مجللـــة ❁ تمـــت فلا منــة فيها ولا كـــــدر[١]

٢٩-بنـــى أمية قـــد ناضلت دونكم ❁ أبناء قوم ، هم آووا وهم نصـــروا[٢]

٣٠-أفحمت عنكم بنى النجار قد علمت ❁ عليــا معد وكانـــوا طالـــما هـــدروا[٣]

٣١-حتى استكانوا وهم منى على مضض ❁ والقول ينفــذ مــا لا تنفــذ الابـــــر[٤]

٣٢-بني أمية إني ناصــح لكــم ❁ فلا يبيتن ، فيكم آمنا زفـــــر[٥]

٣٣- واتخذوه عــدوا إن شاهـــده ❁ وما تغيب مـــن أخلاقه دعـــر[٦]

٣٤- وقد نصرت أمير المؤمنين بنــا ❁ لمـــا أتاك ببطن الغوطـــة الخبـــــر[٧]

٣٥-يعرفونك رأس ابن الحباب وقــد ❁ أضحـــى ، وللسيف فى خيشومه أثر[٨]

٣٦-لا يسمع الصوت مستكا مسامعـــه ❁ وليـــس ينطق حتى ينطق الحجـــر[٩]

---

(١) النعمى : العطايا ، مجللة : سابغة تعم الجميع ، المنة : من الامتنان وهو تعداد المعروف ، الكـدر : الأذى بتعداد النعم .

(٢) ناضلت دونكم : دافعت عنكم ، أبناء قوم : يريد الأنصار الذين هجاهم لما دعاه يزيد الى ذلك .

(٣) أفحمت : أسكت وأخرست بالحجة – بنو النجار : يريد الأنصار من بنى النجار، عليا معد قريـــش ومعد جد مضر ومن مضر قريش وبنو أمية ، الهدير : الصوت القوى كهدير السيل أو الإبل ومعنـــى هدروا رددوا الكلام كثيرا .

(٤) استكانوا : خضعوا ، المضض : ألم المصيبة .

(٥) زفر : زفر بن الحارس الكلابى زعيم قبيلة قيس المعادية لتغلب .

(٦) شاهده : ظاهره ، الدعر : الفساد .

(٧) بطن الغوطة : دمشق .

(٨) ابن الحباب : عمير بن الحباب السلمى من زعماء قيس وكان قد قتله التغلبيون فى موقعة بين قيس وتغلب نصرة للأمويين ، الخيشوم : أقصى الأنف .

(٩) مستكا مسامعه : أصم .

وفى بائيته التى مطلعها[1] :

لعمرى لقد أسريت لا ليل عاجــز ❁ بســاهمة الخدين طاوية القرب

نراه يستهلها بهجاء القيسيين ، ثم يمتدح بنى أميـــة ، فــهم هامــة قريش ، عريقون فى الملك ، حلماء ، فتاكون بأعدائهم :

إليــك ، أمير المؤمنين ، رحلتــها ❁ على الطائر الميمون والمنزل الرحب

إلى مؤمن تجلو صفيحــة وجهــه ❁ بلابل تغشى من هموم ومن كرب

مناخ ذوى الحاجات ، يستمطرونه ❁ عطاء كريم من أسارى ومن نهب

ترى الحلق المآذى تجرى فضوله ❁ على مستخف بالنوائب والحرب

أخوها إذا شالت عضوضا سمالها ❁ على كل حال من ذلول ومن صعب

ويصف مضى الخليفة بالخيل إلى الحرب ، ويعظم ممدوحــه مــن خلال تعظيمه لأصالة خيله ، ويذكر ما قام به من غزو للــروم والفــرس وما كان من أثر لهذه الغزوات . يقول :

إمام سما بالخيل حتــى تقلقــلت ❁ قلائــد فى أعناق معلمة ، حــدب

شولخص بالأبصار ، من كل مقرب ❁ أعــد لهيجا ، أو موافقة الركــب

سواهم ، قد عاودن كل عظيمة ❁ مجللة الأشطان ، طيبة الكســب

يعاندون عن صلب الطريق من الوجا ❁ وهن ، على العلات ، يردين كالنكب

إذا كلفوهن التنــائى ، لــم يـــزل ❁ غراب على عوجاء منهن أو سقب

وفى كل عام ، منذك للــروم غــزوة ❁ بعيدة آثار السناكــب و الســرب

---

(١) شرح ديوان الأخطل ١٨١ .

يطرحن بالصغر السخـــال ، كأنمـــا ❁ يشققن بالأسلاء أردية العصـــب
بنات غراب ، لم تكمل شهـــورهـــا ❁ تقلقلن من طول المغاوز والجذب
وإن لها يومين ، يوم إقامة ❁ ويوما تشكى للقض من حذر الضـــرب
غموس الدجى تتشق من متضرم ❁ طلوب الأعادى ، لا سؤوم ولا وجب

ثم يعرج ثانية على الأمويين ويشيد بعراقتهم فى الملك فيقول :

قروم أبى العاصى ،غداة تخطمت ❁ دمشـــق بأشبـــاه المعنـــأة الجرب
يقودون موجا من أمية ، لم يرث ❁ ديـــار سليم بالحجاز ولا الهضب
ملوك وأحكام وأصحـــاب نجـــدة ❁ إذا شوغبوا ، كانـــوا عليهـــا إلى شغب
أهلوا من الشهر الحرام فأصبحوا ❁ موالى ملك ، لا طريف ولا غصب
تذود القنا والخيل تتثـــى عليهـــم ❁ وهـــن بأيدى المستميتين كالشهب
ولم ترعينى مثـــل ملـــك رأيتـــه ❁ أتـــاك بلا طعن الرماح ، ولا الضرب
ولكـــن رآك الله موضـــع حقـــه ❁ على رغم أعداء وصدادة كـــذب

والشاعر يبلغ فى الأبيات ذروة العظمة ، وهى تدخل فـــى صميـــم الشعر الحربى ، إذ ابتدأها بوصف الخليفة بأنه يفزع خصومه ويقـــــهرهم ويفتك بهم ، ولا يفوته أن يصف الخيل لأنها العامل الأول فى القتـــال ، فيصف سراها وما أصابها من هزال ، ثم يعرج إلـــى حروبـــه مـــع الروم والفرس وما أصابهم من ذعر وفزع ، ويعود إلى المديح مرة ثانيـــة فيصف الأمويين بالعراقة فى الملك والنجدة وأنهم أحق بالخلافة من الذيـــن ينازعونهم لما نالوه من فضل .

ولعل ما عند الأخطل من روح القبلية هو الذى جعله يجيد شعر الحروب ويبرز فيه ، وكثيرا ما كان يهجو جريرا وقومه ، ويقرن ذلك دائما بمدح تغلب ويشيد بهرعهم إلى القتال ونصرتهم لبنى قومهم . وكان يتصالف على جرير ويعيره بأنه يربوعى ، لأنهم كانوا أحلافا للقيسية التى كثيرا ما حاربت قوم الأخطل .

وقد خرج الهزيل بن هبيرة التغلبى مرة فى غزوة على بنى رياح بن يربوع فانتهز الأخطل هذه الغزوة ، وأخذ يكيل التهكم لجرير ، ووصف جيش الهزيل وأحلافه وفرسانهم وخيولهم ، **يقول**[١] :

ولقد سما لكم الهزيل فنالكم ❁ بـاراب حيث يقسم الأنفالا

فى فيلق يدعو الأراقم لم تكن ❁ فرسانه عزلا ولا أكفالا

بالخيل ساهمة الوجوه كأنما ❁ خالطن من عمل الوجيف سلالا

ولقد عطفن على قدارة عطفة ❁ كر المنيح وجلن ثم مجالا

فسقين من عادين كأسا مرة ❁ وأزلن حدبنى الحباب فزالا

يغشين جيفة كاهل عرينها ❁ وابن المهزم قد تركن مزالا

فقتلن من حمل السلاح وغيرهم ❁ وتركن فلهم عليك عيالا

ولقد بكى الجحاف مما أوقعت ❁ بالشرعبية ، إذ رأى الأطفالا

فانعق بضأنك يا جرير فإنما ❁ منتك نفسك فى الخلاء ضلالا

تلك هى جولات الأخطل فى شعر الحرب ، وهى ترينا كيف كان قادرا على وصف المعارك وتصوير الحرب فى شعر المديح والهجاء فكان قديرا حين مزج بين هذين الفنين وبين شعر الحرب ، ولو حدث

---

(١) شرح الديوان : ٣٩١ ، ٣٩٢ .

وتفرغ الأخطل لشعر الحرب وقال فيه قصائد خالصة كما قال فى المدح والهجاء وغيره لكان قد فاق طبقته .. إلا أنه قد شغل بهجائه مع جرير، وضيع هو وصاحبه وقتا كبيرا من حياتهما فى هذا الهجاء ، المر الذى حال بين الأخطل وبين شعر الحرب والفروسية المطول ، الذى يؤرخ للمعارك ونتائجها ، ويصورها تصويرا صادقا .

وعلى هذه الشاكله كان جرير فى مديحه وهجائه ، فهو يشيد بالأمويين وسياستهم وكل ما يصدر عنهم ، فهم قوم فضلهم الله على الناس إذ اختارهم للخلافة ، ويكرر وصفهم بالعدل ورد المظالم لا يمل تكرار هذه النغمة فى مدائحه .

ومن حين لحين يعرض لخصومهم فيصفهم بأنهم ضلوا السبيل ويعدهم خارجين عن الدين ، ويظل يشيد بما يصدر من الأمويين تجاه هؤلاء من سفك الدماء . وقد وضعته الحوادث موضع النقيض من الأخطل ،لأن قيسا قبيلة جرير وتغلب قبيلة الأخطل كانتا على طرفى النقيض فى السياسة ، وكثيرا ما استل رجال القبيلتين السيوف فى معارك حربية ضارية .

وجرير أبرع فى شعر الحرب من الأخطل ، فهو قوى النفس شجاع الهمة ، وله أبيات شعرية كثيرة فى الحماسة ، ولا غرو فنفسه كانت تعلوا به إلى مشارف الفرسان والأبطال ، فهو يفخر بسيفه فيقول[1]:

جرئ الجنان لا أهال من الردى ۞ إذا ما جعلت السيف من عن شماليا

وقد ظهر فيه هذا الشعور حين قال الحجاج له وللفرزدق وهو فى قصره بجزيرة البصرة : ائتيانى فى لباس آبائكما فى الجاهلية فلبس

---

(١) شرح الديوان : ٧١٠ .

الفرزدق الديباج والخز وقعد فى قبة . وشاور جرير دهاة بنـــى يربـــوع فقالوا له : ما لباس آبائنا إلا الحديد ، فلبس جرير درعا وتقلد سيفا وأخـــذ رمحا وركب فرسا لعباد بن الحصين وأقبل فى أربعين فارسا مـــن بنـــى يربوع ، وجاء الفرزدق فى هيئته فقال جرير فى هذا[1] :

لبست سلاحى والفرزدق لعبة ❁ عليه وشاح كرج وجلاجله

أعدوا مع الحلى الملاب فإنما ❁ جرير لكم بعل وأنتم حلائله

وكثيرا ما كان يذكر أمجاد قومه ، وكأنه يريد أن يشحذ بطولتـــه التى يحسها فى نفسه . يقول[2] :

ويوم بنى ربعة قد لحقنـــا ❁ وذدنا يوم ذى نجب كلابـــا

ويوم الحوفزان ، فأين تيم ❁ فتدعى يوم ذلك أو تجابـــا

وكان شعره فى المدح ممزوجا بوصف الحـــرب وذكـــر الســـلاح والأيام وقد فاض هذا الشعر فروسية فـــى وصـــف الخيـــل وهجماتـــها واعتصام الفرسان بغاراتها ، ويظل جرير مولعا بتصوير الفروسية ومـــا تثيره حروب قومه مع التغلبيين .

وقد نظم قصيدة فى هجاء الأخطل ، أخـــذ يفـــاخر فيـــها بقومـــه فقـــال[3]:

ونعرف حق النازلين ولم تـــزل ❁ فوارسنا يحمون قاصية الســـرب

على مقربات هن معقل من جنى ❁ وسم العدى والمنجيات من الكرب

ألا رب جبـــار وطئـــن جبينـــه ❁ صريعا ونهب قد حوين إلى نهب

---

(١) الأغانى : ٢٨٢٢/٨ . دار الشعب ط٢ .

(٢) شرح اليوان :٤٣ .

(٣) شرح الديوان :٨٢ .

ثم يهجو الأخطل ويعيره بانتصار القيسيين على قومه فيقول[١] :

وقد أوردت قيس عليك وخندف ❁ فوارس هدمن الحياض التى تجبى

ستعلم ما يغنى الصليب إذا غدت ❁ كتائب قيس كالمنأة الجرب

وكثيرا ما يعير الأخطل وقومه بما يصيبهم من خذلان فى الحروب كأكبر سبة يمكن أن يلصقها به وبقومه ، ولم يكن ليترك معركة (يوم البشر) التى دارت على الأخطل وقومه ، فكان النصر لجرير ، وكانت الهزيمة للأخطل وقومه ، يقول واصفا تلك الموقعة[٢] :

بكى دوبل ، لا يرقأ الله دمعه ❁ ألا إنما يبكى من الذل دوبل

جزعت ابن ذات الفلس لما تداركت ❁ من الحرب أنياب عليك وكلكل

فإنك والجحاف يوم تحضة ❁ أردت بذاك المكث والورد أعجل

سرى نحوكم ليل كأن نجومه ❁ قناديل فيهن الذبال المفتل

فما لشق ضوء الصبح حتى تعرفوا ❁ كراديس يهديهن ورد محجل

وقد قتل أولاد نسوة ❁ يسوق ابن خلاس بهن وعزهل

عقاب المنايا تستدير عليهم ❁ وشعث النواصى لجمهن تصلصل

بدجلة إن كروا فقيس وراءهم ❁ صفوفا ، وإن رلموا المخاضة أوحلوا

وما زالت القتلى تمور دماؤها ❁ بدجلة حتى ماء دجلة أشكل

نلا الفضل فى الدنيا وأنفك راغم ❁ ونحن لكم يوم القيامة أفضل

---

(١) شرح الديوان : ٨٣ ، ٨٤ .

(٢) شرح الديوان : ٥٤٨ ، ٥٤٩ .

أما الفرزدق فمع تعصبه الشديد لآل البيت وتشيعه لــهم[١] إلا أنــه كان كثير المدح للأمويين ، واعــترف فــى مدحــه لــهم بحقــهم فــى الخلافة ، ولعل حبه للتكسب وخوفه من بطشهم حملاه على أن يظهر فــى مدحه لهم خلاف ما يبطن .

ومع أنه لم يحارب ولم يخض أحداث الحــرب ، وكــان يخشــى الحجاج ويحاذر من جبروته فى قوله :[٢]

أخاف من الحجاج سورة مخدر ۞ ضوارب بالأعناق منه خوادره

إلا أنه لم يقصر فى شعره عن وصف بطولة آبائه وأجداده وكــان قائدا فى هجائه وهو يدافع عن قبيلته . وفى قصيدة له فى الــهجاء نــراه يتطرق إلى وصف المعارك التى دارت بين الحجاج وبيــن جنــود عبــد الرحمن بن الأشعث[٣] ، والتى كانت الهزيمة فى مبدئها للحجــاج حتــى تغير الحال فى آخر المعركة . يقول :[٤] واصفا المعركة ومشيدا بفروسية الحجاج وتأييده من السماء شأنه شأن أهل بدر :

دعوا ودعا الحجاج والخيل بينهــا ۞ مدى النيل فى سامى العجاجة أكدرا
إلى باعث الموت لينزل نصــره ۞ فأنــزل للحجاج نصرا مــؤزرا
ملائكة،من يجعل الله نصرهم ۞ له يك أعلى فى القتال وأصبرا
فلما رأى أهل النفاق سلاحهم ۞ وسيماهم كانوا نعامــا منفــرا
كأن صفيح الهند فوق رؤوسهم ۞ مصابيح ليل لا يبالين مغفرا
بأيدى رجال يمنع الله دينهم ۞ بأصدق من أهل العراق وأصبرا

---

(١) انظر مقدمة الديوان : ٥ ، ٦ . دار بيروت .
(٢) الديوان ٢٥١/١ .
(٣) انظر الكامل لابن الأثير : ٤٦٧/٤ . بيروت .
(٤) الديوان : ٢٤١/١ ، ٢٤٢ .

كأن على دير الجماجم منهم ❁ حصائد أو أعجاز نخل تقعرا

لقيتم مع الحجاج قوما أعـزة ❁ غلاظا على من كان فى الدين أجورا

بهـم يوم بدر أيد الله نصره ❁ وسوى من القتلى الركى المعورا

جنودا دعا الحجاج حين أعانه ❁ بهم ، إذا دعا رب العباد لينصرا

وهكذا رأينا كيف كان شعر الحرب والفروسية عند هؤلاء الأقطاب الثلاثة وسيلة لا غاية ، ومع أن العصر امتلأ بالحروب والفتن إلا أنهم اكتفوا بأبيات يصفون فيها هذه الحرب وتلك الفتن ، ولم يأت عندهم شعر حربى . فى مطولات أو ملاحم ، ولعل قلة حملهم للسلاح وقلة اشتهارهم بشعر الحرب والفروسية كشأن الشعراء الفرسان ، ثم التهاجى الذى حدث بينهم والذى شغلهم وقتا طويلا .. لعل هذا كله كان سبب تقصيرهم فى شعر الحرب والفروسية ، ولو أن هؤلاء قد بذلوا من أنفسهم ، ووفروا من وقتهم قدرا كافيا لشعر الحرب لأعطونا – لما لديهم من نزعة قبلية ودعوى عصبية – ملاحم أو شبه ملاحم ، ولما اكتفوا بتلك الأبيات التى يصفون فيها لمحات من الحرب وأحداثها .

وعلى هذا فنحن نلاحظ أن من خصائص شعر الحرب والفروسية عند كل من شعراء المديح والهجاء ما يلى :

١) يلاحظ على شعر الحرب والفروسية عند هؤلاء الشعراء أنهم اتخذوه وسيلة لا غاية ، فالشعر عندهم وسيلة للتكسب والاحتراف ووسيلة لذم المعارضين المناوئين ، وقد أدى ذلك إلى انصرافهم عن المهمة الأساسية لهذا الشعر ، وأدى من ناحية أخرى إلى تشابه شخصياتهم الشعرية .

٢) لعل عدم اشتهار هؤلاء الشعراء بالشجاعة والبطولة والفروسية كشأن الشعراء الفرسان .. لعل هذا هو الذى جعل شعرهم يخرج فى هذا الفن دون شعر الخوارج ، ومن النادر أن نجد فى شعرهم تجربة حية للحرب تخلو من التكلف والرياء .

٣) والقصيدة التى يصفون فيها الحرب أو الفروسية لا تكاد تخالف القصيدة الجاهلية لا فى الاستهلال[1] ولا فى تعدد الفنون والأغراض ، فالشاعر منهم يبدأ قصيدته بالغزل ، ويأتى فيها بأكثر من غرض شعرى ، ويدور حول أكثر من معنى .

٤) ولما كان هؤلاء الشعراء قد عاشوا فى زمن سادت فيه النزعة القبلية والدعوى العصبية ، وقد قام شعرهم فى المدح والهجاء بإثارة هذه النزعة .. لما كان ذلك رأينا شعرهم فى الحرب والفروسية يصبغ بتلك الصبغة .

٥) ولا بد أن نذكر أن شعر الحرب عند هؤلاء كان يتسم بقوة الجرس وصلابة العبارة ، وبالقوافى الرائعة الطنانة التى تتناسب والحرب . وبشيوع الأوصاف الحربية مثل وصف الجيوش بالجرأة والإقدام والبأس وحب القتال .. ووصف القائد والأمير بأنه ناصر الدين وحامى الإسلام ومؤيد بالنصر من عند الله ، وبالعفو عند المقدرة ووصف صورة العدو بالجبن والخور والخزى والهوان والاستسلام وغير ذلك من الأوصاف المستفيضة الذكر فى أبياتهم فى الحرب .

---

(١) انظر مقدمة القصيدة العربية فى العصر الأموى . حسين عطوان : دار المعارف ١٩٧٤ .

ثالثا : الفرزدق يفخر ويهجو

١-إن الذى سمك السمـــاء بنى لنــا ❁ بيتــا دعائمـــه أعز وأطــول[١]

٢-بيتــا بناه لنــا المليك و ما بنـــى ❁ حكم السمـــاء ، فإنه لا ينقــل[٢]

٣-بيتــا زرارة محتــب بفنــائــه ❁ ومجاشع وأبو الفوارس نهشل[٣]

٤-يلجون بيت مجاشع ، وإذا احتبوا ❁ برزوا كأنهم الجبـــال المثــل[٤]

٥-لا يحتبـــى بفنـــاء بـــيت مثلهـــم ❁ أبدا إذا عـــد الفعال الأفضـــل[٥]

٦-ضربت عليك العنكبوت بنسجها ❁ وقضى عليك به الكتاب المنزل

٧-أيـــن الذيـــن تسامـــى دارمـــا؟ ❁ أم من إلى سلفى طهية تجعل[٦]

٨-يمشون فى حلق الحديد كما مشت ❁ جرب الجمال بها الكحيل المشعل[٧]

٩-والمانعون – إذا النساء ترادفــت ❁ حذر السباء – جمالها لا ترحل[٨]

١٠-وإذا دعوت بنى فقيم جـــاء فى ❁ مجر لـه العدد الذى لا يعـــدل[٩]

---

(١) سمك : رفع ، بيتا : شرفا ونسبا ، الدعائم : جمع دعامة وهى عمود البيت ، أعز : أقوى .

(٢) المليك : الله جل جلاله ، حكم السماء : القوى المقتدر

(٣) زرارة ومجاشع ونهشل أولاد دارم جد عشيرة الفرزدق يفتخر بهم على جرير، احتبـــى : جلـــس راكزا ساقيه أمامه .

(٤) يلجون : يدخلون ، احتبوا : اشتملوا بالثوب ، المثل : الراسيات جمع مـــاثل يشـــبههم بالجبـــال الراسية.

(٥) فناء البيت : الساحة أمامه ، الفعال : الفعل الحسن والخطاب لجرير .

(٦) تسامى : تطاول وتفاخر ، دارم : قوم الفرزدق ، طهية : أم جماعة من قوم الفرزدق يفتخر بـــهم على جرير ، تجعل هنا معناها تقرن بهم وتباهى .

(٧) الحلق : جمع حلقة وهى الدرع . الكحيل ، القطران ، المشعل : الكثير المنتشر

(٨) المانعون : الحامون ، ترادفت : ركب بعضهن خلف بعض ، لا ترحل : لا توضع عليها الرحال.

(٩) بنو فقيم : بطن من قبيلة دارم عشيرة الشاعر ، المجر : الجيش الكبير العدد ، لا يعدل : ليس لـــه نظير .

١١-وإذا بذخت ورايتى يمشى بها ۞ سفيان أو عدس الفعال وجندل(١)

١٢-الأكثرون إذا يعد حصاهم ۞ والأكرمون إذا يعد الأول(٢)

١٣-إن الزحام لغيركم فتحينوا ۞ ورد العشى ، اليه يخلو المنهل(٣)

١٤-حلل الملوك لباسنا فى أهلنا ۞ والسابغات إلى الوغى نتسربل(٤)

١٥-أحلامنا تزن الجبال رزانة ۞ وتخالنا جنا إذا ما نجهل(٥)

١٦-فادفع بكفك إن أردت بناءنا ۞ ثهلان ذا الهضبات هل يتحلل؟(٦)

١٧-وأنا ابن حنظلة الأغر وإننى ۞ فى آل ضبة المعم المخول(٧)

١٨-فرعان قد بلغ السماء ذراهما ۞ وإليها من كل خوف يعقل(٨)

١٩-فلئن فخرت بهم لمثل قديمهم ۞ أعلو الحزون به و لا أتسهل(٩)

٢٠-زيد الفوارس ، وابن زيد منهم ۞ وأبو قبيصة ، والرئيس الأول(١٠)

---

(١) بذخت : فخرت فى كبر ، والأسماء المذكورة فى البيت من قوم الفرزدق .

(٢) حصاهم : عددهم ، الأول : يعنى الآباء والأجداد أو من المساعى والأفعال .

(٣) ورد العشى : ورود الماء فى المساء .

(٤) الحلة: إزار ورداء . السابغات: الدروع ، الوغى: الحرب ، نتسربل: نتقمص أى نلبس السربال وهو القميص أو الدرع .

(٥) الأحلام : العقول . رزانة : وقارا . نجهل : نغضب ونسفه وننتقم .

(٦) ثهلان : جبل عظيم بنجد . والهضبات : جمع هضبة وهى القمة العالية . هل يتحلل؟ : هل يزول ويتحرك .

(٧) حنظلة : هو ابن مالك بن زيد من رهط الشاعر ، وأمه من ضبة . الأغر : المشهور بالعز والشرف ، المعم المخول : الكريم الأعمام والأخوال .

(٨) الذرى : جمع ذروة وهى من كل شئ وأعلاه ، يعقل : يلجأ .

(٩) الحزون : جمع حزن وهو ما غلظ من الارض وضده السهل .

(١٠) زيد الفوارس هو زيد بن حصين سمى بذلك لأنه والى بين سبعة فوارس فى ثأر أبيه حصين . وابنه هو الحصين بن زيد . وأبو قبيصة خوار بن عمرو ومنهم أيضا ، والرئيس الأول هو محلم بن سويط من سعد بن ضبة .

٢١-ممن يكون بنى كليب رهطـــه ❁ أومن يكـــون إليهـــم متخـــول[١]
٢٢-يا ابن المراغة ! أين خالك إننى ❁ خالى حبيش ذو الفعال الأفضل[٢]
٢٣-خالى الذى غصب الملوك نفوسهم ❁ و إليه كان حباء جفنـــة ينقـــل[٣]
٢٤-إنا لنضرب رأس كـــل قبيلـــة ❁ وأبـــوك خلف أتانه يتقمـــل[٤]
٢٥-وشغلت عن حسب الكرام وما بنوا ❁ إن اللئيم عن المكـــارم يشغـــل
٢٦-إن التى فقئت بـــها أبصاركـــم ❁ وهى التى دمغت أباك الفيصل[٥]
.... إلى آخر الأبيات

---

(١) بنو كليب : رهط جرير ، يتخول : يدعيهم أخوالا من الخئولة .

(٢) ابن المراغة : جرير ، حبيش : من بنى ضبة وكان قد أسر عمر بن الحارث الغسانى ، وجـــز ناصيته واشترط عليه أن يبعث إليه كل سنة إتاوة حتى يموت .

(٣) الحباء : العطية ، والمراد به الضريبة ، جفنة هو من اباء الغساسنة واليه ينسبون ، ويسمون آل جفنة ملوك الشام فى الجاهلية .

(٤) الرأس : الرئيس ، الأتان : الحمارة ، يتقمل : يكثر فيه القمل .

(٥) دمغ رأسه : ضربه حتى وصلت الضربة إلى دماغه . الفيصل : مقطـــع الحـــق فيمـــا بيننـــا وبينكم ، ويقول : ان هذه القصيدة كانت تسمى الفيصل .

**التعريف بالشاعر[١]

الفرزدق هو همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم ، ومجاشع بن دارم إحدى قبائل تميم المشهورة فى الجاهلية والإسلام ، ويكنى بأبى فراس ، وهى من كنى الأسد .

وقبيلة الفرزدق لها شأن عظيم فى الجاهلية والإسلام ، وكانت هذه القبيلة تشغل الجزء الأكبر من شرقى الجزيرة ، وهى أقرب إلى أن تكون عدة قبائل فى قبيلة واحدة .

ولد الفرزدق فى كاظمة ، ونشأ فى بيت عز وسيادة ، وقد لقب بالفرزدق لجهامة وجهه تشبيها له بالفرزدقة ، وهى قطعة العجين ، أو الرغيف الضخم ، وقد تربى على الصفات الجاهلية الموروثة من القبيلة ذات العز والشرف والسيادة .

والفرزدق شاعر فحل ، عاش مع خلفاء بنى أمية وأمرائها ، ومدحهم فى قصائد رائعة ، وقد انصرف عن بعضهم فى أحيان كثيرة وأخذ يهجوهم ويتجه بمدحه للعلويين .

وأما أسلوبه فى مدحه فهو قوى متين لا يعجز عن فهمه أحد ، كل ما فى الأمر أن كلماته الغريبة تقل فى المدح عنها فى الفخر ، ولعل ذلك راجع إلى أنه حريص كل الحرص على أن يكون أسلوبه فى مدحه مفهوما مع متانته وقوته .

---

(١) راجع معجم الأدباء لياقوت الحموى ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ، وتاريخ الأدب العربى (العصر الإسلامى) د/ شوقى ضيف .

ومن أبياته التى يمدح بها سليمان بن عبد الملك قوله :

إليك ولى الحق لاقى غروضــــها ❁ وأحقابهـــا إدراجـــها بالمنـــاســـم
نواهض يحملن الهموم التى جفت ❁ بنا عن حشايا المحصنات الكرائم
ليبلغن ملء الأرض نورا ورحمة ❁ وبرءا لآثار الجروح الكوالـــــم
كمـــا بعـــث الله النبـــى محمــدا ❁ على فتـــرة والناس مثل البهائم
ورثتم قناة الملـــك غيـــر كلالـــة ❁ عن ابنى مناف عبد شمس وهاشم
ترى التاج معقودا عليهم كأنهـــم ❁ نجوم حوالى بدر ملك قماقـــم

وعندما يفتخر الفرزدق فإنه يعتمد علـــى رصيـــد مـــن المجـــد والشرف ، فجده صعصعة سيد مطاع فى قومه ، وأبوه غالب على مثـــال جده ، رئيس فى قومه ، ومن زعماء تميم فى الإسلام ، وقـــــد اشـــتهر بالكرم ، إلى ذلك أن فخره كان مقسما بين آبائه وأجداده .

وأما أسلوبه فى فخره فهو قريب من أسلوبه فى مدحـــــه ، فـــهو قوى متين، تتخلله أحيانا كثيرا الألفاظ الغريبة .

ومما قاله يفخر فيه :

لنا العزة القعســـاء والعدد الـــذى ❁ عليـــه إذا عد الحصى يتخلـــف
ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا ❁ وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا
وقد علم الجيـــران أن قدورنـــا ❁ حنوا من للأرزاق والريح زفزف

والفرزدق شاعر هجاء توجه بمعظـــم هجائـــه إلـــى معـــاصره جرير، وهجاؤه مقرون بالفخر غالبا ، وفى هجائه كثـــير مـــن الســـباب والفحش والسوء .

ومن هجائه لجرير قوله :

قنافذ دراجون حول جحاشهم ❁ لما كان إياهم عطية عودا

وقوله :

وهل يا ابن ثغر الكلب مثل سيوفنا ❁ سيوف ولا قبض العديد القماقم

ومما قاله في بني قيس بن عاصم عندما لجأت إليهم زوجته النوار :

بني عاصم لا تلجئوها فإنكم ❁ ملاجئ للسوآت دسم العمائم

وشعر الفرزدق يشتمل على معان إسلامية كثيرة ، مثال ذلك قوله :

ولن يقدم نفسا قبل ميتتها ❁ جمع اليدين ولا الصمصامة الذكر

وقد شغله شعر الهجاء عن شعر الحرب واقتصر في وصفه للحرب بأبيات بثها في ثنايا قصائده الأخرى . فهو في هجائه ليزيد بن مسعود بن خالد يأتي بأبيات في الفروسية عند قومه تحس منها أنه لم يلم بوصف المعارك ، ولم يبذل جهدا في تصوير وقائعها والتحام جيوشها ، وكأنه لم يعرف شيئا عن فنون الحرب يقول :[١]

وكم من رئيس غادرته رماحنا ❁ يمج نجيعا من دم الجوف أحمرا
ونحن صبحنا الحي يوم قراقر ❁ خميسا كأركان اليمامة مدسرا
ونحن أجرنا يوم حزن ضرية ❁ ونحن منعنا يوم عينين منقرا
ونحن حدرنا طيئا عن جبالها ❁ ونحن حدرنا عن ذرى الغور جعفرا
بأرعن جرار تفئ له الصوى ❁ إذا ما اغتدى من منزل أو تهجرا
له كوكب إذ زرت الشمس واضح ❁ ترى فيه منا دارعين وحسرا

---

(١) الديوان : ١/١٩٥ .

**الدراسة الفنية

من هذه القصيدة يتضح أن شعر الفرزدق يمتاز عموما بالمميزات الآتية:

١) شعر الفرزدق فى الفخر لا يشق له غبار .
٢) الهجاء عند الفرزدق أقل حظا من الفخر .
٣) ما جاء فى شعر الفرزدق من ألفاظ غريبة إنما هو ناتج عن حياة البداوة التى كان يعيشها .
٤) الفرزدق جيد التصوير ، بارع فى ابتكار الصور .
٥) شعر الفرزدق وإن كانت معانيه تميل إلى مثل العرب فى الجاهلية فإنه يشتمل على معان إسلامية .
٦) ما يقال من أن الفرزدق ينحت من صخر إنما يشار به إلى أن معانيه محدودة ولكنها قوية .
٧) أسلوب الفرزدق مع قوته ومتانته فيه تعقيد ، وشغره وعر القوافى، صعب الألفاظ ، قصير القصائد نسبيا .
٨) يخالف الفرزدق القواعد النحوية أحيانا قليلة.

والفرزدق يفخر بآبائه وأجداده العظماء ، وسايرت ألفاظه وعباراته الجو النفسى ، وتمشت مع طبيعة الموضوع وهو الفخر والهجاء ، فجاءت الألفاظ قوية ، وجاءت العبارات جزلة محكمة تقرع الآذان ، وتلك طبيعة الفرزدق كما قلنا سابقا : (ينحت من صخر) .

مع قلة الصور الواردة فى الأبيات ، فإنه يلاحظ أنها تمتاز بقوة التأثير ، وأنه تأثر فى بعضها بالقرآن الكريم ، وتأثر فى بعضها الآخر بالبيئة ، وعلى القارئ أن يطيل النظر فى الأبيات لمتابعة كل هذه المناظر .

ومن المعروف أن الأمويين قد أثاروا النعرات القديمة والعصبيات القبلية، فشاع بين الشعراء الهجاء الشخصى والقبلى ، وكان من أبرز أعلام هذا اللون من الشعر الشعراء (جرير والفرزدق والأخطل) .

وقد نشأ بين الشعراء الثلاثة هذا اللون من الشعر الذى يسمى (فن النقائض) وطريقته أن ينظم شاعر قصيدة موضوعها الفخر والهجاء من وزن بعينه وقافية بعينها ، فينقضها شاعر آخر بقصيدة أخرى من نفس الوزن والقافية .

وأحسب أن هؤلاء الشعراء الثلاثة لو خلصوا إلى شعر الفروسية وإلى حروب العصر ، فوصفوا وقعاتها ، وأسكبوا خيالاتهم الرائعة فى هذا الوصف ، ولم يكتفوا بأبيات يبثونها بين شعر المدح والفخر والهجاء لخلدوا فروسية الأبطال الذين أنبتهم عصر بنى أمية ، لما روى عن خوارق بطولاتهم ، وروائع شجاعتهم وإقدامهم فى الحرب، والجود بأنفسهم فيها .

رابعا : قصة غزلية للشاعر

جرير بن عطية الخطفى

هذه قصة غزلية يبدأها الشاعر بالحديث عن رحيل الأحبة ،ثم ينتقل إلى وصف حاله وما أصابه بعد هذا الرحيل ، وهو في هذا الوصف ينتقل من وصف المحبوبة إلى إرسال التحية بالرسائل ، في أسلوب حوارى يتسم بالسهولة والرقة ويجعل القصيدة من قصائد الغزل المميزة .

النص :

بان الخليط ولو طوعت ما بانا ❁ وقطعوا من حبال الوصل أقرانا[١]

حى المنازل إذ لا نبتغى بدلا ❁ بالدار دارا وبالجيران جيرانا

قد كنت في أثر الأظعان ذا طرب ❁ مروعا من حذار البين محزانا[٢]

لو تعلمين الذى نلقى أويت لنا ❁ أو تسمعين لذى العرش شكوانا[٣]

كصاحب الموج إذ مالت سفينته ❁ يدعوا إلى الله إسرارا و إعلانا

يا أيها الراكب المزجى مطيته ❁ بلغ تحيتنا لقيت حملانا[٤]

بلغ رسائل عنا خف محملها ❁ على قلائص لم يحملن حيرانا[٥]

نهدى السلام لأهل الغور من ملح ❁ هيهات من ملح بالغور مهدانا[٦]

---

(١) الخليط : المخالط .

(٢) الظعائن ، مفردها الظعينة : الهودج فيه امرأة أم لا .

(٣) أويت : رققت .

(٤) المزجى : يسوق . لقيت حملانا : أى رزقك الله ما يحملك .

(٥) قلائص:مفردها ، قلوص : نوق . ولم يحملن حيرانا : يريد أنهن حول لم يلحقن

(٦) ملح : ماء لبنى العدوية .

أحبب إلى بذاك الجزع منزلــة ❁ بالطلح طلحا وبالأعطان أعطانا[١]
يا ليت ذا القلب لاقى من يعللــه ❁ أو ساقيا فسقاه اليوم سلوانـــا[٢]
أو ليتها لــم تعلقنـــا علاقتـــها ❁ ولم يكن داخل الحب الذى كانا
هلا تحرجـــت مما فعلـــت بنـــا ❁ يا أطيب الناس يوم الدجن أردانا[٣]
قالت : ألم بنا إن كنت منطلقـــا ❁ ولا إخالك بعـــد اليوم تلقـــانا
يا طيب هل من متاع تمتعين به ❁ ضيفا لكم باكرا يا طيب عجلانا[٤]
ما كنت أول مشتاق أخى طرب ❁ هاجت له غدوات البين أحزانا
يا أم عمرو جزاك الله مغفـــرة ❁ ردى على فؤادى كالذى كانـــا
ألست أحسن من يمشى على قدم ❁ يا أملح الناس كل الناس إنسانا
لقد كتمت الهوى حتى تهيمنـــى ❁ لا أستطيع لهذا الحب كتمانـــا
لا بارك الله فيمن كان يحسبكـــم ❁ إلا على العهد حتى كان ما كان
من حبكم فاعلمى للحب منزلـــة ❁ نهوى أميركم لو كان يهوانـــا!
لا بارك الله فى الدنيا إذا انقطعت ❁ أسباب دنياك عن أسباب دنيانا
يا أم عثمان إن الحب عن عرض ❁ يصبى الحليم ويبكى العين أحيانا
ضنت بموردة كانت لنا شرعـــا ❁ تشفى صدى مستهان القلب صديانا[٥]
كيف التلاقى ولا فى القيظ محضركم ❁ منا قريب ولا مبـــداك مبدانـــا
نهوى ثرى العرق إذ لم نلق بعدكم ❁ كالعرق عرقا ولا السلان سلانا[٦]
ما أحدث الدهر مما تعلمين لكم ❁ للحبل صرما و لا للعهد نسيانا
إن العيون التى فى طرفها حور ❁ قتلننا ثم لم يحيـــيـــن قتلانـــا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به ❁ وهن أضعف خلق الله أركانـــا

---

(١) الطلح : شجر . الأعطان : مبارك الابل ، واحدها عطن .
(٢) السلوان : ما يسليه .
(٣) الدجن : ظل الغيم فى اليوم المطير .
(٤) طيب : أراد طبة .
(٥) الصدى : العطش . والصديان : العطشان .
(٦) العرق : واد لبنى حنظلة بن مالك . والسلان : واد لبنى عمرو بن تميم .

ظنى بكم حسن من خبرة بكم ۞ فلا تكونوا كمن قد كان ألوانا

بتنا نراها كأنا مالكون لها ۞ يا ليتها صدقت بالحق رؤيانا

قالت تعز فإن القوم قد جعلوا ۞ دون الزيارة أبوابا وخزانا

لما تبينت أن قد حيل دونهم ۞ ظلت عساكر مثل الموت تخشانا

يا أم عثمان ما تلقى رواحلنا ۞ لو قست مصبحنا من حيث ممسانا

تخدى بنا نجب دمى مناسمها ۞ نقل الحزابى حزانا فحزانا[١]

ترمى بأعينها نجدا وقد قطعت ۞ بين السلوطح والروحان صنوانا[٢]

يا حبذا جبل الريان من جبل ۞ وحبذا ساكن الريان من كانا

وحبذا نفحات من يمانية ۞ تأتيك من قبل الريان أحيانا

هبت شمالا فذكرى ما ذكرتكم ۞ عند الصفاة التى شرقى خورانا[٣]

هل يرجعن،وليس الدهر مرتجعا ۞ عيش بها طال ما احلولى وما لانا

---

(١) مناسمها : أظفارها . النقل : العدو . الحزابى : النشوز واحدها : حزباء . الحزان: جمع حزيز ، وهو ما انقاد وغلظ فى الأرض .

(٢) السلوطح : بالجزيرة . الروحان : أقصى بلاد بنى سعد .

(٣) حوران : من عمل دمشق .وهى اليوم محافظة فى جنوبى سورية .

التعريف بالشاعر [١]

ينتسب جرير بن عطية بن الخطفى لقبيلة كليب اليربوعية التميمية ، وكان جده حذيفة الملقب بالخطفى شاعرا واسع الاطلاع على اللغة وعلى أنساب العرب .

ولد جرير سنة٣٠هـ بأرض اليمامة ، ونشأ فقيرا يرعى إبل قومه وأغنامهم ، وكانت نشأته فى بيئة بدوية يتوارث أبناؤها الشعر ، وقد دعاه قومه بنو يربوع للإقامة فى البصرة حين رأوا الفرزدق يقيم بها ، وينظم الأشعار فى سب جرير وقومه ، فما كان من جرير إلا أن استجاب لقومه وانحدر إلى البصرة وأقام فيها سنوات .

وقد استعر الهجاء بينه وبين الشعراء فى سوق المربد ، بيد أن معركته الكبيرة فى الهجاء كانت مع الفرزدق ، ثم مع الأخطل ، وبقية الشعراء الذين قيل إنهم بلغوا الثمانين ، والمعروف أن الشاعر قد غلب هؤلاء جميعا .

وجرير من شعراء العصر الأموى الذين اتخذوا شعرهم وسيلة للتكسب ، فقصد به الخلفاء والأمراء ومدحهم ، وقد جاهر فى قصيدته التى توجه بها لمدح عبد الملك بن مروان بطلب العطاء ، كما جاهر بالشكوى للخليفة من الفقر المدقع بطريقة لم يكن الشعراء العرب القدامى يرتضونها لأنفسهم .

---

(١) انظر الأغانى ، الشعر والشعراء ، وخزانة الأدب ، وتاريخ الأدب العربى (العصر الإسلامى) د. شوقى ضيف .

ومن أبرز الذين مدحهم جرير ، ونال هباتهم وعطاياهم من الخلفاء : عبد الملك بن مروان ، والوليد بن عبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز ، وهشام بن عبد الملك ، ومن الولاة ! الحجاج بن يوسف الثقفى ، وخالد بن عبد الله القسرى ، والمعلوم أن الحجاج هو الذى أوصله إلى دار الخلافة ، وشعر جرير يمتاز بالرقة والعذوبة مع الفصاحة والمتانة، وهو شعر جميل الوقع ، تتقبله النفس ، وتستمتع بقراءته ، لا تجد فيه ثقلا ولا تعقيدا ، وهو يشمل الهجاء والمدح ، والرثاء والغزل ، ويرق فى الغزل ، ويكون قويا فى المدح والهجاء ، وعلى هذا فشعره خال من التكلف ، وهذا هو السبب الذى جعل أسلوبه عذبا لينا لا قسوة فيه ولا جفاء ، أما ما يمكن أن يقال عن معانيه فإنها مستمدة من القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، بالإضافة إلى معارف العرب العامة ، وأكثر شعره فى الهجاء ، ثم يليه المدح ، وله رثاء جيد مقبول ، أما غزله فهو قليل ، وله رجز ولكنه قليل كذلك .

وجرير يقصر غزله على زوجاته وإمائه ، ويبعد فيه عن الفحش ، ومن المعلوم أن بعض أشعاره فى الغزل يتغنى بها لما تتمتع به من لين ورقة فى الأسلوب ، وقد فاقت أشعاره فى الغزل شعر العذريين الذين كثروا فى عصره أمثال : جرير ، وكثير ، وقيس بن ذريح ، وعلى وجه الخصوص فى الرقة والحلاوة .

وشعر جرير مناسب للغناء ، مطاوع له ، ولعل هذا هو السبب الذى جعل الأصفهانى صاحب الأغانى يعنى بنقل أخبار كثيرة عن شعره المغنى .

وقد اختلف الأقدمون فى جرير وزميليه **(الأخطــل والفــرزدق)** اختلافا كبيرا ، فمنهم من أعجب بجرير وشعره ، ومنهم مـــن أعجـب بشعر الأخطل ، وجرير بعامة يمتاز فى شعره بعذوبة كلمه ، وحـــلاوة نغمة .

الدراســة الفنيـــة

بـــرع جريـــر فـــى معظـــم فنـــون الشـــعر كالـــهجاء والرثاء ، والمدح ، والنسيب ، وكان الهجاء هو الفن الغالب عليه ، وهـو وإن لم يصل فخره إلى مستوى فنون الشعر الأخرى فإن مـــا يمكـــن أن يقال عنه إنه كثيرا ما يتقدم الأخطل والفرزدق وخاصة فى الموضوعات التى تتطلب دقة فى الإحساس ورقة فى الشعور ، ومن ثم سبقهما فـــى موضوعات : الرثاء والغزل وشعر الأسرة ، والهجاء الخالص .

والأبيات المذكورة تمثل قصيدة شعرية لشاعر عفيف ، يصـــف حالة من حالاته ، يأتى فيها بمعانى الحب العفيـــف ، والغـــزل البـــدوى الرقيق ، الذى يصور أوصاف المحبين والعاشقين .

وتبدأ الأبيات بحديث الشاعر عن رحيل الأحبـــة علـــى عـــادة الشعراء ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى وصف حاله بعد فراقهم ، ثم يخـــاطب المحبوبة قائلا لها :

لو تعلمين الذى نلقى أويت لنا ❁ أو تسمعين إلى ذى العرش شكوانا

وبعد أن يخاطب محبوبته نراه يلجأ إلى إرسال التحية ، وما يكاد القارئ يقرأ هذه الرسائل حتى يجد الشاعر يذكر كثيرا من الأماكن، بل يجده يقيم موازنة بينها فى أسلوب يجعل القارئ يتابع القراءة بلهفة وشوق ، يساعده فى ذلك سهولة الألفاظ ، وسلامة التراكيب ، وتجنب الشاعر للتعقيد .

وبعد أن يصف حالته نراه يتوجه بالحديث إلى المحبوبة ، ويأخذ يناديها بأسماء متعددة على عادة الشعراء فى إخفاء أسماء من يتغزلون بهن ، وهو فى كل ذلك يصف حبه وشوقه ، وينعتها بأجمل النعوت وأحسن الأوصاف .

والقصيدة من قصائد جرير المميزة فى باب الغزل ، وتتميز بالرقة والعذوبة ، والبعد عن الفحش ، والإيحاء المستمر بمعانى الحب العفيف ، والغزل البدوى الرقيق ، والملاءمة التامة لعفة النفس ، وللذوق السليم النقى .

أما خيال جرير فيمتاز حقا ، وخصوصا حين وصف المحبوبة بأنها أجمل من مشى على الأرض ، وأملح الناس عينا .

ومن أخيلته الجميلة ما قاله عن عيون المحبوبة من أنها تصرع الناظر إليها :

إن العيون التى فى طرفها حور ❁ قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به ❁ وهن أضعف خلق الله إنسانا

خامسا قصيدة فى الرثاء لشاعر الإباضية

عمرو بن الحصين

تمهيد

الإباضية آخر حركات الخوارج فى العصر الأموى ، وهى أولى حركاتهم فى جنوب الجزيرة العربية سنة١٠٧هـ .

وهذه الفرقة نسبة إلى عبد الله بن إباض ، وقد بويع إماما للإباضية سنة١٢٩هـ ،وفى صنعاء قدم إليه الخوارج من كل صوب حتى عظم شأنهم بين أهل اليمن .

ولعل السبب المباشر لذلك هو القائد الشجاع أبو حمزة الشارى ، فقد قاد جيشا من أهل اليمن ، وتوجه به إلى مكة فى موسم الحج سنة١٢٩هـ ، فتقهقر أمامه الأمير الأموى عبد الرحمن بن سليمان بن عبد الملك ، وانتصر أبو حمزة انتصارا مروعا على جيش عبد العزيز بن عمر بن عثمان بن عفان فى معركة " قديد " .

وقد دخل أبو حمزة المدينة ومكث فيها قرابة ثلاثة شهور،وألقى من فوق منبر الرسول صلى الله عليه وسلم خطبته المشهورة التى تشيد بتقوى رجاله وشجاعتهم ، والتى رسم فيها صورة مؤثرة لقتلى الخوارج كوسيلة يحاول بها استثارة عواطف مستمعيه من الخوارج .

وسرعان ما زالت قوة أبى حمزة أمام جيش الشام بقيادة عبد الملك بن محمد بن عطية ، الذى قدم المدينة فى جمادى الأول سنة١٣٠هـ ، وقد فر أبو حمزة على أثر الهزيمة الى مكة ، لكن ابن عطية لم يلبث أن تعقبه فى مكة ؛ ودارت معركة عنيفة قتل فيها أبو حمزة ، كما قتلت امرأته الجعيداء ، وصلب أبو حمزة مع من صلب من الشراة .

وقد رثى شاعر الإباضية عمرو بن الحصين أبا حمزة وغيره من الشراة بقصيدة طويلة[١] تعد من مختار شعر العرب ، وقد استهلها بالبكاء فقال :

هبت قبيل تبلج الفجر ❁ هند تقول ودمعها يجرى
إذ أبصرت عينى وأدمعها ❁ ينهل وا كفها على النحر
أنى اعتراك وكنت عهدى لا ❁ سرب الدموع ، وكنت ذا صبر
أقذى بعينك ما يفارقها ❁ أم عائر أم ما لها تذرى
أم ذكر إخوان فجعت بهم ❁ سلكوا سبيلهم على قدر
فأجبتها بل ذكر مصرعهم ❁ لا غيره عبراتها يمرى

ثم تحسر على إخوانه الشهداء ، وأخذ يشيد بهم فقال :

يا رب أسلكنى سبيلهم ❁ ذا العرش ، واشدد بالتقى أزرى
فى فتية صبروا نفوسهم ❁ للمشرفية والقنا السمر
تالله ألقى الدهر مثلهم ❁ حتى أكون رهينة القبر
أوفى بذمتهم إذا عقدوا ❁ وأعف عند العسر واليسر
متأهبون لكل صالحة ❁ ناهون من لاقوا عن النكر
صمت إذا احتضروا مجالسهم ❁ وزن لقول خطيبهم وقر
ألا تجيئهم فإنهم ❁ رجف القلوب بحضرة الذكر
متأوهون كأن جمر غضا ❁ للموت بين ضلوعهم يسرى
تلقاهم إلا كأنهم ❁ لخشوعهم صدروا عن الحشر
فهم كأن بهم جوى مرض ❁ أو مسهم طرف من السحر
لا ليلهم ليل فيلبسهم ❁ فيه غواشى النوم بالسكر
إلا كذا خلسا وآونة ❁ حذر العقاب فهم على ذعر

---

(١) شعر الخوارج : ٢٢٣ – ٢٢٧ .

ويعود إلى التفجع فيقول :

كم من أ خ لك قد فجعــت بـــه ❁ قــوام ليلتـــه الـــى الـــفـــجــــر

متـــأوهـــا يتلـــو قـــوارع مـــن ❁ آى الكتـــاب مفـــرح الصـــــدر

نصـــب تجيـــش بنـــات مهجته ❁ م الخوف جيش مشاشة القـــــدر

ظمـــآن وقـــدة كـــل هاجـــــرة ❁ تـــراك لذتـــه عـــلـــى قـــــدر

تراك مـــا تهـــوى النفـــوس إذا ❁ رغب النفوس دعا إلى المزرى

تعليـــق عـــام :

شعر عمرو بن الحصين يتميز بطول النفس بطريقة لا تعهد عند أقرانه من شعراء الخوارج .

وقصيدته التى بين أيدينا تتجاوز أبياتها الخمسين بيتا ، وهو عدد لم نجده فى قصيدة لغيره من الشراة .

والقصيدة تتميز إلى جانب طولها باستقصاء الموضـــوع الـــذى يرمـــى إليـــه الشـــاعر فـــى أســـلوب قصصـــى يتمـــيز بدقـــة فـــى الوصف ، ووضوح فى المعانى مع بساطتها .

وشعر الخوارج فى جملته لم يتجاوز حياة الشـــعراء الفرســـان ومشاعرهم نحو حياتهم ، فهو يصور واقعهم الذى يعيشونه ، ويصـــور إحساسهم بهذا الواقع ، فهو شعر ذاتى استوحوه من حياتهم الشـــخصية ومن أحاسيسهم ومشاعرهم نحو هذه الحياة ، فهم لا يتحدثون عن شـــئ لذات هذا الشىء ، وإنما يتحدثون عنـــه مـــن حيـــث علاقتـــهم بـــهذا الشىء ، وحين يتحدثون عن الأمور التى يعنيهم الحديث فيها فإننا نجـــد

حديثهم تجربة حقيقية لما يحسونه ولما يرونه حولهم ، ولولا ما يندفع في شعر الخوارج من صدق العاطفة وحرارة الشعور لأحسسنا بالسأم ، لأنه ليس هناك فارق كبير بينهم في المعاني ولا في الصياغة.

وكون شعر الخوارج تجربة حقيقية أمر لا يحتاج إلى توضيح ، فلو رجعنا إلى الأغراض الشعرية التي نظموا فيها لوجدناها تصويرا لواقعهم الذي يعيشونه ، ولوجدنا التصوير نفسه واقعيا ، فالموضوع واقعي وتصويره أيضا واقعي ، وقد ألجأتهم حياتهم إلى أن يكون شعرهم واقعيا ، يقولون الشعر فيما يعيشونه ويفعلونه لا فيما يتصورونه ويتخيلونه ، ولذلك قل في شعرهم الحديث عن الحب ، وما ورد من غزل في أشعارهم إنما كان القصد منه هو الحماسة والحرب والشجاعة.

وإذا قلنا إن شعراء الخوارج الفرسان لم يقولوا شعرهم لذات الشعر ، وإنما يقولونه لأنفسهم حتى صار أشبه ما يكون بالمذكرات الشخصية التي يسجل فيها الشخص خواطره ومشاعره ومشاهداته في نطاق حياته ومعيشته وصلاته وصراعه مع من حوله .. حين نقول ذلك فإننا نؤكد أن شعر الفروسية يمثل حقيقة التجربة الشعرية في أصدق صورة فنية ترجى من شاعر ، وأن شعرهم بلغ في هذه الناحية أقصى ما ينتظره النقد من صدق التجربة وصدق الشاعر في نقلها .

وشعر الخوارج يدور حولهم فيصور إيمانهم ويفخر بتضحياتهم وبانتصاراتهم ، ولما كان شعرهم وحي جهادهم ذهبت الكثرة الكثيرة منه في تصوير حروبهم وتمجيد بطولاتهم وشجاعتهم واستعذاب الموت والتضحية في سبيل معتقدهم ، ولذلك يصح لنا أن نقول دون أدنى غرابة إننا نقرأ أشعار الخوارج فنحس كأننا نراهم ونرى حياتهم وظروفهم ، ونلمس بحواسنا البواعث التي دفعتهم إلى هذا اللون من الشعر .

وموضوعات شعر الفروسية عند الخوارج موضوعات خاصة بهم من حيث أنهم أحسوها ، وصارعوا ظروفها ، وعبروا تعبيرا حقيقيا عما كانوا عليه بالفعل ، فشعرهم يمثل بحق حياتهم الحربية وآمالهم العريضة التى من أجلها قاموا بتلك الحروب ، وخاضوا تلك الأحداث القاسية .

فالشجاعة والمروءة والنجدة وقسوة الحياة .. كل هذا عاناه شعراء الخوارج معاناة حقيقية ، ونحن لا ننكر عليهم هذه المعاناة ، ذلك لأنها جاءت منسجمة مع نفسيتهم الثائرة الأبية المستهينة بكل شئ المحتقرة لكل شئ من حطام الدنيا .

ويتجلى الصدق العاطفى فى رثاء عمران بن حطان لأبى بلال مرداس ، فلقد أحبه وأعجب به وتمثله كما تمثل فروسيته ، وضاقت به الدنيا بعد رحيله عنها .

يقول [١] :

لقد زاد الحياة إلى بغضا ❁ وحبا للخروج أبو بلال

وعروة بعده سقيا ورعيا ❁ لعروة ذى الفضائل والمعالى

أحاذر أن أموت على فراشى ❁ وأرجو الموت تحت ذرى العوالى

فالأبيات وصف لتجربة حقيقية مر بها الشاعر وعاناها ، وهى تثبت حزنا صادقا على فقد عزيز استحالت الدنيا بعده إلى دنيا موحشة ، وصدق الشعور هنا هو الذى كسى الأبيات هذا التأثير ، وهو الذى أوحى بتتابع جرسها الحزين .

---

(١) شعر الخوارج : ١٤٢ .

وحين نقرأ أبيات قطرى بن الفجاءة (١) :

لا يركنن أحـــد إلـــى الإحجـــام ❁ يوم الوغـــى متخوفـــا لحمـــام

فلقـــد أرانـــى للرمـــاح دريئـــة ❁ من عن يمينى مـــرة وأمامـــى

حتى خضبت بما تحدر من دمـــى ❁ أكناف سرجى أو عنان لجامى

ثم انصرفت وقد أصبت ولم أصب ❁ جذع البصيرة قـــارح الإقـــدام

متعرضا للموت أضرب معلمـــا ❁ بهم الحروب مشهر الأعـــلام

أدعو الكماة إلى النزال ولا أرى ❁ نحر الكريم على القنا بحـــرام

يخيل إلينا أننا نرى بطولته وشجاعته وإقدامـــه ، بـــل إن البيـــت الواحد من هذه الأبيات ليطلعنا على صورة من حياة قطرى بن الفجـــاءة كفارس ، ويشرف بنا على معيشته فنعلم منه أنه يعيش حياة الفروسية.

ولعل الظاهرة التى تسترعى النظر أن أدب الخوارج بصفة عامـــة يتمثل فى الصدق ، ومعظم شعراء الخوارج كانوا من زعماء المذهـــب الخارجى ومن أساطين الدعاة لهذا المذهب ، وكان بعضهم من أربـــاب السيف ، ولعل هذا هو السبب فى أن جاء شعرهم خلاصة تجربة ذاتيـــة حيـــة بعيـــدا عـــن التكلـــف والريـــاء وخـــرج فـــى جملتـــه ملتـــهبا متدفقا ، تشع منه استهانتهم بالحياة ، والإسراع إلى الموت فـــى ميـــدان الجهاد .

---

(١) المصدر نفسه : ١١٢ .

وقد أحس خصوم الخوارج بنفاذ قولهم إلى القلـــوب ، وشـــهدوا لهم بذلك وتخوفوا من تأثيرهم على الناس [١] ، ولعل أهل الحديـــث قـــد فطنوا إلى ناحية الصدق بصفة عامة عند الخوارج فعدوهم أصدق أهـــل الأهواء حديثا [٢].

يضاف إلى ذلك أن شعر الخوارج فى أكثرة لـــم يكـــن يخـــاطب العقول والأفهام ، وإنما كان يخاطب المشـــاعر والوجـــدان . وخـــرج شعرهم نتيجة لهذا تعبيرا عن مشاعرهم وأحاسيسهم لا عـــن عقـــائدهم وتعاليمهم .. ولهذا فمن السهل على من يقرأ أشعارهم أن يتبين منها قـــوة مشاعرهم الدينية ، وأن يرى فى مجموع شعرهم صورتهم المثالية ومـــا تميزوا به من طول جهاد وتعبد .

وكان لهذا الطابع من الصدق الفنى أثر واضح فى خلق التشـــابه والتكرار فى شعر الخوارج حتى أشكلت نسبة كثير من شـــعرهم إلـــى أصحابه الحقيقيين ، واختلفت الروايات حول نسبة بعض الشعر لشـــاعر أو لغيره . والمتتبع لهذا الخلاف يجد أنـــه قـــد مـــس معظـــم شـــعراء الخوارج.

فقد اختلف الرواة فى قول القطرى بن الفجاءة [٣] :

لعمرك إنى فى الحيـاة لزاهـد ❁ وفى العيش ما لم ألق أم الحكيم
ولو شهدتنى يوم دولاب أبصرت ❁ طعان فتى فى الحرب غير ذميم

فمن الرواة من يرويه لقطـــرى ، ومنـــهم مـــن يرويـــه لعمـــرو القنا ، ومنهم من يرويه لحبيب بن سهم التميمى ،ومنـــهم مـــن يرويـــه لعبيده بن هلال اليشكرى .

---

(١) أدب السياسة فى العصر الأموى د. أحمد الحوفى : ٢٢٨ .
(٢) تهذيب التهذيب،ابن حجر العسقلانى:١٢٧/٨.حيدر آباد ١٣٢٧هـ .
(٣) شعر الخوارج : ١٠٦ .

يقول صاحب الأغانى : " ذكر المبرد أن الشعر . يريد البيتين المذكورين . لقطرى بن الفجاءة ، وذكر الهيثم بن عدى أنه لعمرو القنا ، وذكر وهب بن جرير أنه لحبيب بن سهم التميمى ،وذكر أبو مخنف أنه لعبيده بن هلال اليشكرى ، وذكر خالد بن خداش أنه لعمرو القنا أيضا " [١] .

ومن أمثلة الخلاف فى نسبة الشعر ما قيل فى قول قطرى بن الفجاءة أيضا [٢] :

إذا قلت تسلو النفس أو تنتهى المنى ۞ أبى القلب إلا حب أم حكيم
منعمة صفراء حلو دلالها ۞ أبيت بها بعد الهدو أهيم
قطوف الخطى محطوطة المتن زانها ۞ مع الحسن خلق فى الجمال عميم

يقول صاحب الأغانى : " الشعر - أى هذه الأبيات - مختلف فى قائله ، فمن الرواة من يرويه لصالح بن عبد الله العبشمى ،ومنهم من يرويه لقطرى بن الفجاءة ، ومنهم من يرويه لعبيده بن هلال اليشكرى "[٣] . وإن كنت أرى أن هذا الشعر والذى سبقه يترجّح كونه لقطرى . لأن أم الحكيم عرفت به وعرف بها ، ومن المستبعد أن يقول فيها مثل هذا الشعر إلا حبيبها المرموق ، ولعل السبب فى خلق التشابه والتكرار فى شعر الخوارج وإشكال نسبة كثير من هذا الشعر إلى أصحابه الحقيقيين ، أن أكثر ما عبر عنه شعراء الخوارج محدود مشترك بينهم جميعا ، فهم يتغنون بعاطفة واحدة ، وينزعون إلى هدف واحد قصروا شعرهم عليه وهو فناؤهم فى عقيدتهم وخضوعهم لسلطانها وقصرهم اهتمامهم عليها .. ولا عجب ؛ فالمشرب الذى شربوا جميعا منه واحد ، فلم تتميز من ثم شخصياتهم ولم

---

(١) الأغانى : ٦/٢٢٢١ . ط الشعب .

(٢) شعر الخوارج : ١٠٨ .

(٣) الأغانى :٦/٢٢٢٠ . ط الشعب .

تتباين ، وكانوا على قوة المشابهة لدرجة أن ظهر شعرهم وكأنه صـــور متعددة لنمط واحد [١] .

والحق نقول إن هناك صورة أخرى من الاختلاف ، وهى أننـــا نجد بعض أبيات لشاعر من شعراء الخوارج قد انبثت فى شعر شـــاعر خارجى آخر ونسبت إليه ، ومن صور الاختلاف التـــى لا تخلـــو مـــن غرابة أننا نرى القصيدة المختلف فى نســـبتها قـــد وردت فـــى صـــور مختلفة من حيث ألفاظها وترتيب أبياتها و بعض عباراتها . وخير مثـــال لذلك قصيدة "يوم دولاب" لقطرى بن الفجاءة [٢] .

وهذا التشابه والتكرار لا يغض من شأن شعر الخوارج ، كمـــا لا ينقص من درجة الصدق والإخلاص فيه ، لأنه ليس تكرارا بـــالتقليد أو استدعاء لنموذج شعرى غالب ، ثم إن الشعر لم يكن يمثل عندهـــم فنـــا ينقطعون له أو يتنافسون فى تجويده ، فهم فى غنى عن تقليد الســـابقين أو مجاراة المعاصرين ، لأن حياتهم قد وفرت لهم مادة غزيـــرة لفنـــهم استلهموها ولم يشتغلوا بغيرها .

والذى يؤكد هذا ويقويه أننا نجد شعرهم يمثل الحياة الشـــخصية لكل منهم فحين نقرأ شعر شاعر منهم فإننا نستشف منه حيـــاة صاحبـــه ومذهبه فى الحياة وأسلوب معيشته . ولسنا فى حاجة – حيـــن نـــود أن نعلم حياة الشاعر منهم وظروفه – إلى أن نستقصى شعره كله ، وإنمـــا يكفى أن نلم بقدر من شعره فنعلم منه تفاصيل حياته ، وليس ببعيد عنـــا ما صنعه المؤرخون من اعتمادهم على شعر الخـــوارج فـــى اســـتنباط أخبارهم وأحداث حياتهم وظروفها .

---

(١) انظر الفرق الإسلامية فى الشعر الأموى د. نعمان القاضى : ٤٥٥وما بعدها . دار المعـــارف ١٩٧٠ .

(٢) انظر المصدر السابق : ٤٥٥-٤٥٨ .

وعلى ذلك فلا عيب على شعر الخوارج أن يكون قد صدر في مواقف وأحداث بعينها ، وإنما العيب ألا يكون الصدق ملازما لانفعال الشاعر منهم وأن يأتي شعره فلا ندرى أهو له أم لغيره ، أو أن يكون شعرهم تلبية للحزبية ومجاراة لأوضاع سياسية من غير أن يكون لهذه الأحداث أثر في عواطفهم وأحاسيسهم .

ولعل الذى دفعني إلى هذا الموضوع أن كثيرا مما نظمه شعراء الخوارج كان قد صدر في مواقف وأحداث بعينها . وعلى هذا فإنني أرى أن شعر المناسبات والمواقف كأى شعر ، فإن انبثق من عاطفة صادقة جاء شعرا يقبله الذوق ويرضى به ، ولا ضرر عليه أنه في المناسبة ، فكل الشعر العاطفي الصادق إنما تدعو إليه مناسبة من المناسبات العاطفية من حب وإعجاب وغير ذلك من العواطف التى هي البواعث الحقيقية للشعر ، فالشعر الصادق هو ما كان مرآة لعصره ، وسجلا لبيئته وديوانا لأيامه ، وتعبيرا لأحاسيس قائليه[١].وطبيعة الأديب الوظيفية تسمح له بالحرية في تناول ما يتراءى في نفسه [٢] .

وفوق ذلك فكثير من شعر الخوارج في المناسبات والمواقف نرى الشاعر فيه يطغى على المناسبة ويسمو فوقها ، ولا يبدو أمام القارئ أثر للمناسبة ، وإنما يجد حظ العاطفة والوجدان والتجربة الشعرية أكبر بكثير من حظ المناسبة والظروف الطارئة ، ذلك لأن المناسبة قد هزت وجدان الشاعر وأثارت شاعريته ، فبدا وكأن نفسه تتحرك بإلهام منه لا بإلهام خارجي عنه ، ثم إن المناسبات قد أتت آنذاك متوافقة مع شعراء

---

(١) التجديد في الأدب المصري الحديث د. عبد الوهاب حموده :١٢٠. دار الفكر العربي ، الطبعة الأولى.

(٢) قضايا النقد الأدبي الحديث د. محمد السعدى فرهود :١٥٦. دار الطباعة المحمدية، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م .

الخوارج ودوافعهم النفسية ، وكل ما للمناسبة من دور أنها حركت فحسب التجربة التى بداخل الشاعر ، ولا شك أن الخوارج كانوا غلاة فى عقيدتهم ، وكانوا كذلك غلاة فى حربهم ، فكم خربت لهم دور وكم سفكت لهم دماء ، حتى قست قلوبهم فى سفك الدماء والتخريب وغلظت أكبادهم فى الحرب وفنونها .

ولا شك أن المناخ العام فى عصر بنى أمية كان مجالا رحبا يتسع لقوة العاطفة وصدقها ، فالعصر عصر أحزاب سياسية حقيقية ، وقد نشط كل حزب فى محاربة الأحزاب الأخرى ومحاولة إجهاضها والنيل منها ، والخوارج لهم باع طويل فى هذا الصراع ، فمن ثم كان ميدانهم فى الشعر أرحب وأوسع وهذا هو السبب فى تأجج العاطفة عندهم حتى خرج شعرهم وكأنه قطعة منهم ومن حياتهم ، تتجلى فيه التجربة وتتمثل فيه أحداث العصر ، ولقوة العاطفة عند الكثير من شعرائهم خرجت طريقتهم فى الوصف تمتاز بالتصوير الفنى الجميل .

ومن ينظر إلى قول قطرى بن الفجاءة [١] :

أقول لها وقد طارت شعاعا ❁ من الأبطال ويحك لن تراعى
فإنك لو سألت بقاء اليوم ❁ على الأجل الذى لك لم تطاعى
فصبرا فى مجال الموت صبرا ❁ فما نيل الخلود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عز ❁ فيطوى عن أخى الخنع اليراع
سبيل الموت غاية كل حى ❁ فداعيه لأهل الأرض داعى
ومن لا يغتبط يسأم ويهرم ❁ وتسلمه المنون إلى انقطاع
وما للمرء خير فى حياة ❁ إذا ما عد من سقط المتاع

---

(١) شعر الخوارج : ١٠٨ ، ١٠٩ .

يرى زحام الأبطال وحومة النضال ، ويرى حربا مشتعلة بين الشاعر وبين نفسه . وهذه الأبيات مع قلتها تعطينا صورة صحيحة لفروسية الخوارج وكفاحهم ، كما تعطينا ما لدى شعرائهم من روعة في وصف المعارك والحروب ، ولصدق العاطفة في القصيدة خرجت أبياتها متوالية لا يند فيها بيت عن جاره .

وليت شعرى ماذا يضر مثل هذا الشعر لو كان فى المناسبات والمواقف ، أليس كل ما نخلع عليه من إحساننا ونفيض عليه من خيالنا ، ونتخلله بوعينا ، ونبث فيه من هواجسنا وأحلامنا ومخاوفنا هو شعر وموضوع للشعر لأنه حياة وموضوع للحياة [١].

ولئن كان الشعر رسالة للحياة فما الحياة إلا مجموعة مناسبات ، ولا ضرر على هؤلاء الشعراء أن يكتبوا فى المناسبات وبخاصة أن أحدا لم ينتدبهم ، وإنما هم الذين صرفوا أنفسهم إلى هذا الشعر وآثروا أن يصوروا العصر وصراعاته وأحداثه اليومية ، أما غير هؤلاء الشعراء ممن جاء شعرهم من مقتضيات المقام فهم قد رجعوا بالشعر إلى الجمود حين قصروه على المناسبات وجعلوه وقفا على الأحداث وبعض ما تتزين به حفلات التأبين ، والشاعر آنذاك قد انصرف إلى تملك شعور الجماعة فهو يرضى سامعيه قبل أن يمر بخاطره إرضاء نفسه [٢] .

والمتعمق لشعر الخوارج يخرج بعدة نتائج هى للحقيقة أقرب منها إلى الاحتمال ، ذلك أنهم التزموا خطا واضحا لا يحيدون عنه ، وكانت لهم أفكار ونظريات وخطوط عريضة حافظوا عليها وساروا جميعا على تنفيذها .

---

(١) مقدمة عابر سبيل للعقاد (فى خمسة دوواوين) ص ٣٧٨. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م.

(٢) انظر ثورة الأدب د. هيكل :٥٨ ، ٦٢ ، ٦٧ . القاهرة ١٩٤٨م .

وأشعار شعراء الخوارج الفرسان أمثال قطرى بن فجـــاءة وأبـــى بلال مرداس وعمران بن حطـــــان وغـــيرهم مليئـــة بـــهذه الخطـــوط العريضة ، فكلهم يدعو إلى الفداء وبذل النفس رخيصة فى سبيل العيـــش الكريم ، ومواجهة التحديـــات مـــهما كـــانت النتـــائج المترتبـــة علـــى ذلك ، وهذا المنطلق واحد عند جميع شـــعرائهم ، وهـــو يختلـــف قـــوة وضعفا حسب نفسية كل واحد منهم ومؤهلاته .

ومن الأمثلة الحية على ذلك قول الرهين بن سهم المرادى (١) :

إنى لبائع ما يفنـــى لباقيـــة ۞ إن لم يعقنى رجاء العيش تربيضا
أخشى فجاءة قوم أن تعاجلنى ۞ ولم أر بطـــوال العمـــر تنقيصـــا
وأسأل الله بيع النفس محتسبا ۞ حتى ألاقى فى الفردوس حرقوصا

فنحن نلمس فى الأبيات الشجاعة الفائقة الممزوجة بالحرص علـــى مواجهة التحديات والاستهانة بالموت فى أوقات الشدة والشعور الفيـــاض فى مجال الفروسية والحماسة ، وإيثار حياة العزة والكرامة على حيـــــاة الدعة والسلام .

ومن ذلك أيضا ما قاله عمران بن حطان (٢) :

لقد زاد الحياة إلـــى بغضـــا ۞ وحبـــا للخـــروج أبـــو بـــــلال
أحاذر أن أموت على فراشى ۞ وأرجو الموت تحت ذرى العوالى
ولو أنى علمت بـــأن حتفـــى ۞ كحتـــف أبـــى بـــلال لـــم أبـــال
فمن يك همه الدنيـــا فإنـــى ۞ لهـــــا والله رب البيـــت قالـــــى

---

(١) شعر الخوارج : ٦٢ .

(٢) المصدر السابق : ١٤٢ ، ١٤٣ .

شعر الخوارج فى مجموعه صادق غير مزيف ، وهو شعر فطرى لم يتخذ وسيلة للمدح البعيد عن الحقيقة ، بل لا أبالغ إذا قلت إن هذا الشعر يحكى بوضوح قصة متصلة الحلقات بين الخوارج وبين أعاديهم ، وكان موضوع هذه القصة منصبا على حروب الخوارج وتحديهم لخصومهم ، ودعوتهم إلى الفداء وبذل النفس رخيصة فى سبيل العيش الكريم .

وشعر الفروسية عند الخوارج يقوم على الاختصار فى الوصف والتصوير فليس لديهم قصائد كاملة فى الفروسية ، وإنما هى لمحات يريك الشاعر من خلالها صورة لشجاعة الخوارج وبطولاتهم وتفانيهم فى سبيل مبدئهم . وهذه فى مجموعها تصل لأن تكون مادة للفن القصصى ، فالشاعر يسجل فى القصيدة كل ما يدور فى يومه من أحداث مثيرة ، وغالبا ما يبدأ تصويره بزمان ومكان محددين ، وقد يلجأ إلى الحديث عن تجهيز العدة والعتاد ، فيتحدث عن الأسلحة من خيل وقسى وسهام ورماح ، ثم ينتقل إلى وصف الصراع الذى بينه وبين أعدائه .

وقد تشابهت طريقة شعراء الخوارج فى وصف الصراع ، فهم غالبا يتكئون على الخبرة وقوة الإرادة والصلابة فى النزال . ومع هذا فهم يختلفون فى الفن القصصى ضيقا واتساعا والتزاما بمقومات هذا الفن من شاعر لآخر ، والمعول فى ذلك كله هو شخصية الشاعر وطبيعته والدافع الذى دفعه إلى خوض هذه التجربة ، والمجال الذى يتحدث فيه الشاعر ومدى اتساعه أو ضيقه للحوار الذى يجريه الشاعر بينه وبين نفسه أو بينه مثلا وبين سلاحه .

ويحكى لنا الشاعر عمرو بن الحصين شـــاعر الإباضيـــة فـــى قصيدتيه "رثاء أبى حمزة الشارى وغيره من الشـــراة ، ووقعـــة يـــوم قديد"[١] حديثا طويلا عن بطولات الشراة فى الحـــروب ومـــآثرهم فـــى القتال وعدم مبالاتهم بالمنية إن هى هجمت عليـــهم وأودت بحياتـــهم .. وهذه الأحداث إن هى إلا قصة طريفة ، يتخللها بيـــان رائـــع لوصـــف السبل التى يسلكها فرسان الخوارج كوســـيلة لتحقيـــق مآربـــهم وتنفيـــذ غاياتهم .

وإذا كانت الملحمة قصة شعرية موضوعـــها وقـــائع الأبطـــال الوطنيين العجيبة التى تبوئهم منزلة الخلود بين بنـــى وطنـــهم[٢] ، وإذا كان كل شعر – طال أو قصر – وقد وصفت فيه المعارك ، وســـردت فيه أخبار البطولة ، ورويت فيه ملاحمـــات الجيـــاد هـــو مـــن شـــعر الملاحم[٣]. فإن هناك ملحمة بطولية رائعة تتمثل فى أشـــعار الخـــوارج التى صورت أهوال الحرب وفتكاتـــها ، وتغنـــت بالبطولـــة والأبطـــال وصدرت عن روح جماعية ، وأبرزت مثل الخوارج كجماعـــة ، كمـــا أبرزت تطلعاتها ومعتقداتها .

والحقيقة أننا إذا تلمسنا الجوانب الفنية للملحمة فى شعر الخـــوارج فإننا نقول بكل صراحة إننا لا نبتغى فى أشعار الخوارج ما نبتغى مـــن الملحمة التى تبرز فيها مواقف رئيسية تتســـلخ منـــها مواقـــف أخـــرى فرعية ، وتتسع فيـــها الأحـــداث وتفصـــل ، ويتجلـــى فيـــها الحـــوار القصصى ، ويكثر فيها الشخوص . بل نبتغى ما نجـــده فـــى القصـــص القصير من إيجاز فـــى تصويـــر الأحـــداث وبدايـــة جيـــدة وســـرعة الحركة ، وصياغة فخمة تتناسب مع جـــلال الملاحـــم والحديـــث عـــن

---

(١) أنظرهما فى شعر الخوارج : ٢٢٣ ، ٢٢٨ .

(٢) النقد الأدبى ، د. غنيمى هلال : هامش ص٨٩ .

(٣) شعر الحرب فى أدب العرب د. زكى المحاسنى : ٢٩ .

البطولة والأبطال . هذا إلى ما فى أشعار الخوارج مــن روح جماعيــة تشيد بجماعة الخوارج وآمالهم ، وما يتسمون به من حسن بــلاء وقــوة احتمال .

وتاريخ الخوارج الحافل كان جديرا بأن يحمل الشــعراء علــى تسجيله وتصويره ، وكان يمكن للشعراء أن ينظموا فيه ملحمة عظيمــة كالإلياذة والشاهنامة ، فتجمع تاريخ الخوارج ، وتخلد أمجادهم فى السـلم والحرب ، وتكون هذه الملحمة كتاب فخر لهم وقدوة لحماستهم المنقطعة النظير ولكننا لدى استعراضنا لما خلفه شعراء الخوارج من شعر نجــده ضئيلا ، وهو مع ضآلته مقطوعات قصيرة ، ولم يشــذ عــن ذلــك إلا قصائد قليلة كمطولة عمرو بن الحصين العنبرى التى يرثى فيــها أبــا حمزة المختار وغيره من الشراة والتى جاوزت الخمسين بيتــا ، وقــد تميزت بدقة الوصف وتكرار المعانى ، واســتقصاء الموضــوع الــذى يرمى إليه الشاعر بأسلوب قصصى .

سادسا : من شعراء الفروسية القبلية

(أ) النابغة الشيبانى

شاعر بدوى من شعراء الدولة الأموية ، وكان يفد إلى خلفاء بنى أمية فيمدحهم ويجزلون له العطاء ، ولما هم عبد الملك بخلع أخيه عبد العزيز وتولية ابنه الوليد العهد كان النابغة منقطعا إلى عبد الملك مداحا له .

وقد تغالى فى مدحه ليزيد بن عبد الملك ، ووفد مرة إلى هشام ابن عبد الملك فلما رآه قال له : ألست القائل :-

هشام والوليد وكل نفس ❁ تريد لك الفناء لك الفناء

أخرجوه عنى! والله لا يرزؤنى شيئا أبدا وحرمه .

أما فخره بحماسة قومه فهو أطوع له من التمدح بحماسة وشجاعة بنى أمية ، وهو الدليل الواضح على أن فروسية هذا الشاعر كانت تتمثل أكثر ما تتمثل فى نزعته القبلية .

يقول الأصبهانى [١] : غنى أبو كامل مولى الوليد بن زياد يوما بحضرة الوليد :

امدح الكأس ومن أعملها ❁ واهج قوما قتلونا بالعطش

فسأل عن قائل هذا الشعر فقيل : نابغة بنى شيبان ، فأمر بإحضاره فأحضر ، فاستنشده القصيدة فأنشده إياها ، وظن أن فيها مدحا له فإذا هو يفتخر بقومه ويمدحهم فقال له الوليد : لو سعد جدك لكانت مديحا فينا لا فى بنى شيبان ، ولسنا نخليك على ذلك من حظ ، ووصله وانصرف .

---

(١) الأغانى : ٢٥٥٠/٧ .

ومن هذه القصيدة :

وبنو شيبان حـــول عصــــب ❁ منهم غلب وليســـت بالقمــش

وردوا المجـــد وكانوا أهلـــه ❁ فرووا والجود عاف لم ينـــش

وترى الجرد لـــدى أبياتهـــم ❁ أرنات بين صلصـــال وحـــش

ليس فى الأموال منها هجنـــة ❁ وضح البلق ولا عيب البـــرش

فيها يحوون أمـــوال العـــدى ❁ ويصيدون عليها كـــل وحـــش

دميت أكفالهـــا مـــن طعنهـــم ❁ بالردينيات والخيـــل النجـــش

ننهل الخطـــى مـــن أعدائنـــا ❁ ثم نفرى الهام ان لـــم نفتـــرش

فاذا العيش من المحل غـــدت ❁ وهى فى أعينها مثـــل القمـــش

حسر الأوبـــار ممـــا لقيـــت ❁ من سحاب جاد عنها لم يـــرش

ذاك قـــولـــى وثنائـــى وهـــم ❁ أهل ودى خالصا فى غير غش

فسلـــوا شيبـــان ان فارقتهـــم ❁ يوم يمشون إلى قبرى بنعـــش

هل غشينا محرما من قومنـــا ❁ أو جزينا جازيا فحشا بفحـــش

وهكذا تجلت العصبية القبلية فى شعر شاعرنا "النابغة الشـــيبانى" وقد عبرَ عنها بنماذج رائعة من الفروسية ، وأرى شعره أقـــوى دليـــل على شعر الفروسية الذى سكبه على قومه وقبيلته .

(ب) الشاعر القطامى [١] :

وهناك شاعر آخر يعد شعره مثالا للفروسية القبلية وهو الشاعر عمرو بن شييم التغلبى ، وهو يعد مثالا واضحا لشعراء الفروسية القبلية ، وشعره أصح دليل على شعر الحرب الذى سكبه صاحبه على قومه ، فلم يجعل لغيرهم نصيبا فى شرفه ، وقد ذهب بعمود هذا الضرب من الشعر الأموى [٢] .

وهو شاعر خامل الذكر ، كان نصرانيا ثم أسلم ، يغلب عليه لقب القطامى .

قال عبد الملك بن مروان للأخطل : يا أخطل تحب أن لك بشعرك شعر شاعر من العرب ؟ قال اللهم لا ، إلا شاعرا منا مغدف القناع ، خامل الذكر ، حديث السن ، إن يكن فى أحد خير فسيكون فيه ، ولوددت أنى سبقته إلى قوله :

يقتلننا بحديث ليس يعلمه ❁ من يتقين ولا مكنونه بادى
فهن ينبذن من قول يصبن به ❁ مواقع الماء من ذى الغلة الصادى

وهو أول من لقب صريع الغوانى بقوله :

صريع غوان راقهن ورقنه ❁ لدن شاب حتى شاب سود الذوائب

وقد جرت حروب بين قوم الشاعر وبين القيسيين ، وشهد كثيرا من هذه الحروب ، ولعل هذا هو السبب فى وفرة شعره القبلى ، ولعله السبب فى وفرة قسط كبير من شعره الحربى فيما قال من شعر .

---

(١) انظر الأغانى : ٩٤٥٧/٢٨ .

(٢) شعر الحرب فى أدب العرب : ص١١١ .

وخير ما يمثل ذلك قصيدته العينية التى قالها فى مدح زفر بـــن الحارث بعد أن فك أسره وخلى سبيله ، فقد أشاد فى هذه القصيدة ببنـــى قومه بطولة وشجاعة وبأسا فى الحروب ، ولم يستطع أن يخفـــى تلـــك العنصرية التى تسرى فى دمه فقال : (١)

فأصبح سيل ذلك قد ترقى ۞ إلى من كان منزله يفاعـــا
فلا تبعد دماء بنى نـــزار ۞ ولا تقرر عيونك يا قضاعا

وقد ابتلى بالحرب بين قومه بنى تغلب وبين قيس عيلان ولـــولا ذلك لما عانى الأسر ، ولما وقع أسيرا بيد زفر بن الحارث ، ولما احتـــل ذكر الحرب والسلاح والفروسية شطرا كبيرا من شعره .

ومع تنويهه بزفر وبصنيعه معه إلا أنه - لتأصل روح القبليـــة فى نفسه ولصدق بلائه وفروسيته - بعث قصيدة لزفر أخذ يمن عليـــه فى ثناياها ، ويظهر زهوه بقبيلته وبفرسانها .

يقـــول :(٢)

من مبلغ زفر القيسى مدحتـــه ۞ من القطامى قولا غيـــر إفنـــاد
إنى وإن كان قومى ليس بينهم ۞ وبين قومك إلا ضربة الهـــادى
مثن عليك بما استبقيت معرفتى ۞ وقد تعرض منى مقتـــل بـــادى
فلن أثيبك بالنعمـــاء مشتمـــة ۞ ولـــن أبـــدل إحسانـــا بإفســـاد
فإن هجوتك ما تمت مكارمتى ۞ وإن مدحت فقد أحسنت إصفادى
وما نسيت مقام الورد تحسبـــه ۞ بينى وبين خفيف الغابة الغـــادى
لولا كتائب من عمرو نصول بها ۞ أرديت يا خير من يند وله النادى

---

(١) الأغانى : ٩٤٨٢/٢٨ .
(٢) الأغانى : ٩٤٨٥/٢٨ ، ٩٤٨٦ .

نماذج من النثر فى العصر الأموى

تمهيد

من الملاحظ أن النثر قد تطور فى عصر بنى أمية وتنوعت أغراضه تبعا للتطور الذى أصاب العقلية العربية آنذاك ، وأخذ من ثم تتعدد أنواعه ، وكان من أهم أنواع النثر فى عصر بنى أمية :

١- الخطابة .
٢- الرسائل .
٣- المناظرات .

الخطابة :

غير أن الخطابة تعد على رأس الأنواع النثرية فى عصر بنى أمية ، وقد ساهمت عوامل كثيرة فى ازدهارها [1] ، وهناك من أنواعها :

١- الخطابة الدينية .
٢- الخطابة السياسية .
٣- الخطابة التى تتمثل فى الوفود إما للتهنئة أو للتعزية .
٤- الخطابة فى الحرب .

وقد تنوع أسلوب الخطابة بتنوع موضوعها ، فأسلوب الخطابة الدينية يعد وسطا بين القوة والابتذال ، فهو أسلوب واضح لا يصل إلى حد الكلمات الغريبة ، لأن الخطبة الدينية – وكما هو معروف – يستمع إليها العالم والعامى .

---

(١) انظر تاريخ الأدب العربى د. شوقى ضيف (العصر الإسلامى) دار المعارف بمصر ط٧ ص٤٠٥ وما بعدها .

أما أسلوب الخطبة السياسية فهو يميل فى معظمه إلى القوة ، وقد تشتمل الخطبة السياسية على بعض الكلمات الغريبة ، وأسلوب خطب الحرب أسلوب حماسى بطبعه .

الرسائل :

كثرت الرسائل – وبخاصة الرسائل السياسية – فى العصر الأموى ، ولعل ذلك راجع إلى تفرق العرب فى الأمصار ، وتعدد ولايات الدولة ، هذا من جانب ومن جانب آخر فإن كثرة الأحزاب السياسية وتعدد الفرق الدينية كان عاملا مساعدا على ذلك .

والرسائل فى هذا العصر أنواع منها :

١- الرسائل السياسية .

٢- الرسائل الوعظية .

٣- الرسائل الشخصية .

٤- الرسائل الديوانية .

ومن كتاب الرسائل فى عصر بنى أمية : معاوية بن أبى سفيان ، وعبد الملك بن مروان ، والحجاج بن يوسف الثقفى ، وقطرى ابن الفجاءة .

وقد تطور أسلوب الرسائل إلى أن برزت فى آخر العصر الأموى الكتابة الفنية فى رسائل سالم مولى هشام بن عبد الملك وابنه عبد الله وعبد الحميد الكاتب .

أولا : خطبة الحجاج بن يوسف الثقفى
فى مسجد الكوفة
حين ولاه عبد الملك العراق

المناسبة :

حين توفى والى العراق بشر بن مروان اختار عبد الملك بن مروان الحجاج ليكون والى العراق الجديد سنة ٧٥هـ وأمره بالتوجه إلى مقر الولاية بأقصى سرعة ممكنة ، فترك بلاد الحجاز ، وتوجه للعراق فى اثنى عشر رجلا من أصحابه ، وعندما وصل إلى الكوفة توجه إلى المسجد وألقى هذه الخطبة المروعة .

نبذة عن الحجاج :

هو الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبى عقيل الثقفى ، داهية سفاك دماء، وخطيب لا يبارى .

ولد بالطائف سنة ٤١هـ ، ونشأ بها ، ثم التحق بجند عبد الملك ابن مروان ، وتولى قتال عبد الله بن الزبير فى مكة فانكشفت مواهبه القيادية، الأمر الذى جعل عبد الملك يوليه أمر عسكره ، وبعد وفاة بشر ابن مروان أمر بتوليته على العراق.

وعندما عين على العراق اتجه إلى الكوفة ، وتوجه إلى المسجد وكان الوقت أول النهار ، فما كان من الناس إلا أن أسرعوا إلى المسجد ظنا منهم أن الخوارج هم الداعون ، بينما كان كل من دخل المسجد ينظر إلى ذلك الرجل الذى تغطى عمامته وجهه ، بحيث لم يظهر منه إلا القليل ، وألقى خطبته العنيفة التى نحن بصدد تحليلها وشرحها .

أما عن فصاحة الحجاج فقد شهد بها القاصى والدانى ، فهو يعد وزياد بن أبيه أشهر الخطباء السياسيين فى العصر الأموى ، وكان الحجاج يعرف هذه القدرة فى نفسه ، فأخذ يستعين بموهبته الخطابية ، وقدرته الكلامية فى إقناع الخصوم ، ودفع الناس ، وتوجيههم الوجهة التى يريدها .

والخطبة التى بين أيدينا تعد من أشهر خطبه وأروعها ، ولم لا والحجاج له أسلوبه الخاص فى الخطابة ، وهو يعشق الألفاظ الغريبة ، والأساليب المتينة ، وينفر من الأساليب المبتذلة .

ومن الروايات التى تحدثت عن مناسبة هذه الخطبة[١] يتبين لنا أن الحجاج كان داهية ماكرا ، فقد دخل المسجد متقلدا سيفه ، متنكبا قوسه ، وقد تلثم بعمامته ، ولكى يبدأ صفحته مع أهل الكوفة بزرع الخوف والرعب فى صدورهم دخل المسجد بهذه الصورة الغريبة التى لم يعتادها الناس إلا فى جماعات الخوارج ، وصعد المنبر وهو ملثم واجتمع الناس ، وطال انتظارهم ، واحتاروا فى أمر هذا الرجل الذى ظل على المنبر ساعة دون أن يتكلم ، حتى فاجأهم جميعا بهذه الخطبة المروعة المجلجلة .

وحين فرغ من الخطبة أشار إلى غلامه أن يقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين ، فبدأ يقرأ : (بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالكوفة من المسلمين . سلام عليكم) فسكتوا جميعا ، فقال الحجاج : اكفف يا غلام ، والتفت إلى الناس فقال : أيسلم عليكم أمير المؤمنين ولا تردون ؟! والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب ، فلم يبق فى المسجد أحد إلا قال : وعلى أمير المؤمنين السلام ، وهذا يوضح أن الحجاج يعلم علم اليقين ما العراق ، فحشد له كل ما أوتى من مواهب وقوى .

---

(١) انظر البيان والتبيين (جـ٢) للجاحظ ، وانظر الكامل (جـ١) للمبرد .

الـنـص[1]

" أنا ابن جلا وطلاع الثنايـا ❁ متى أضع العمامة تعرفونى

يا أهل الكوفة . أما والله إنى لأحمل الشـر بحملـه ، وأخـذوه بنعله ، وأجزيـه بمثلـه ، وإنـى لأرى أبصـارا طامحـة ، وأعناقـا متطاولة ، ورءوسا قد أينعت وحان قطافها ، وإنى لصاحبـها ، وكـأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى تترقرق ، ثم قال :

هذا أوان الشـد فاشتدى زيم ❁ قد لفها الليـل بسواق حطـم

ليس براعـى إبـل و لا غنـم ❁ ولا بجزار على ظهر و ضـم

ثم قال :

قـد لفهـا الليل بعصلبـى ❁ أروع خراج مـن الـدوى

مهاجر ليس بأعرابى

ثم قال :

قد شمرت عن ساقها فشدوا ❁ وجدت الحرب بكم فجدوا

والقـوس فيـها وترعـرد ❁ مثل ذراع البكر أو أشـد

لا بد مما ليس منه بد

إنى والله يا أهل العراق ، ومعدن الشقاق والنفـاق ، ومسـاوئ الأخلاق ، ما يقعقع لى بالشنان ، ولا يغمز جانبى كتغماز التين ، ولقـد فررت عن ذكـاء ، وفتشـت عـن تجربـة ، وجريـت إلـى الغايـة القصوى ، وإن أمير المؤمنين – أطال الله بقاءه – نـثر كنانتـه بيـن يديه ، فعجم عيدانها فوجدنى أمرها عودا ، وأصلبها مكسرا ، فرمـاكم بى ، لأنكم طالما أوضعتـم فـى الفتـن ، واضطجعتـم فـى مراقـد

---

(١) الخطابة فى صدر الإسلام : ٢/٣٤٤– ٣٤٧ . د/ محمد طاهر درويش ، دار المعارف بمصـر ١٩٦٧م .

الضـــلال ، وسـنـنتم سـن الغــى ، أمـــا والله لألحونكـــم لحـــو العصـــا ، ولأقرعنكـم قـرع المـــروة ، ولأعصبنكـــم عصـــب السلمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل ، فإنكم لكأهل قريـــة كـانت آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغدا من كل مكـــان ، فكفـرت بـأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ، وإنى والله لا أعـد إلا وفيت ، ولا أهم إلا أمضيت ، ولا أخلق إلا فريت ، فإيـــاى وهـذه الشفعاء ، والزرافات والجماعات ، وقالا وقيلا ، وما تقول ؟ وفيم أنـت وذاك ؟ أما والله لتستقيمن على طريق الحق ، أو لأدعن لكل رجل منكـم شغلا فى جسده .

وإن أمير المؤمنين أمرنى بإعطائكم أعطيـاتكم ، وأن أوجـهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبى صفرة ، وإنى لأقسم بـالله لا أجـد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيـام إلا سـفكت دمـه ، وأنـهبت ماله ، وهدمت منزله ".

شرح المفردات:

ابن جلا : أى المنكشف الأمور واضحها ، أو ابـن رجـل جـلا الأمـــور، وكشفها ، أو يكون ابن جلا رجلا معينـــا عـرف بـالفتك والغارة ، وطلوع الثنايا : وهى الطرق فى الجبـال ، والعمامـة مغفـر الحرب وخوذته .

الشد : العدو والهجوم . زيم : اسـم لفـرس أو ناقـة . الحطـم والحطمة : الراعى وسائق الماشية يجهدها ويشد عليها . الوضـم : مـا يقطع عليه اللحم .

العصلبى : الشـديد القـوى . الأروع : الذكـى ومـن يعجبـك شجاعته . الدو والدوى : الفلاة الواسعة يسمع فى الليل دويها.

عرد : شديد . البكر : الفتى من الإبل .

يقعقع بالشنان : الشنان جمع شن وهو القربة البالية ، قعقع : أحدث صوتا .

الكنانة : جعبة السهام .

عجم العود : عضه واختبره ليعرف مدى صلابته وقوته .

أوضعتم : أسرعتم السير .

لحا العصا : قشرها .

المروة : حجر أبيض براق يقدح النار .

أعصبنكم : أجمعكم كما تجمع أغصان السلمة ثم تضرب بالعصا ليسقط ورقها . والسلمة : شجرة ذات شوك . غرائب : جمع غريبة ، وغرائب الإبل تضرب لتذاد عن الماء ضربا شديدا .

أخلق : أقدر . فريت : قطعت .

الزرافات : جمع زرافة (بفتح الزاء وضمها) وهى الجماعة من الناس .

القال والقيل والقالة فى الشر .

التعليق

استهل الحجاج خطبته ببيت من الشعر يزكى فيه نفسه ، ويتغنى بوضوحه وشدته ، والبيت لشاعر مخضرم اسمه سحيم بن مرئيل الرياحى ، وكأنه يريد أن يقول للناس إننى علرف بالأمور ، جلد على أتم استعداد للصعاب ، صغيرها وكبيرها ، وسوف تعرفون أى نوع من الرجال ذلك الأمير الملثم عندما يحسر اللثام وينكشف وجهه .

وأشار أنه لا يفزع من الضجيج ، ولا يتأثر سريعا ، ولا يثور لأول صيحة ، وإنما يأخذ الأمور بالحكمة ، أى أن اختياره لإمارة العراق لم يكن اعتباطا ، وإنما هو ناتج عن ترو ، واختيار دقيق ، وأن أمير المؤمنين عندما أراد اختيار أمير للعراق جمع رجاله فاختبرهم ، فوجد الحجاج أشدهم مرارة وقسوة ، وأنسبهم إلى الفتنة التى أخذت تدب فى أرض العراق .

ثم أخذ يهدد ويتوعد ، وأقسم أن يعاملهم معاملة شديدة قاسية كما ورد تفصيل ذلك فى الخطبة ، وأخيرا أخبرهم أنه يقول ويفعل ، وأنه ماض فى تنفيذ كل ما وعد به ، ودعا الناس إلى العمل والجد ، ومعاونة رجاله فى قتال الخوارج .

ومن هذا العرض يتضح أن الحجاج كخطيب تفيض أفكاره بالوعيد والتهديد ، ولا غرابة فى ذلك فهو رجل يحمل إمارة بلد يزخر بالفرقة ، وتكتنفه الأهواء ، فالخوارج على أبواب الكوفة ، وثورة ابن الزبير لم تجف دماؤها ، والشيعة يعلنون تذمرهم من الأمويين ، ومن جهة أخرى تقدح العصبية شررها بين تميم والأزد ، وعلى هذا راحت أفكار هذه الخطبة تسرى بين الناس ، وعم بينهم تأثيرها .

على كل حال أبان الحجاج من خلال هذه الخطبة منهجه في السياسة والحكم ، والفصاحة والبلاغة ، فجاء بألفاظ مجلجلة ، تملأ الفم، وتترك أثرا قويا في أذن السامع ، ومثل هذه الألفاظ : (جلا ، طلاع ، قطافها ، يقعقع ، بقاءه ، واضطجعتم ...) ، كما أنه أتى بألفاظ خشنة وعرة وكأنه يتعمد الغريب ؛ كي يوقع الرعب في القلوب .

وتتجلى في ألفاظ الحجاج ، ومعانيه وتراكيبه شخصيته ، فيتأكد لمن يسمعه أنه يسمع خطيبا فصيحا ، فاتكا ، داهية ، شجاعا ، ومن التراكيب التي ينتظم فيها ذلك قوله : (إني لأرى رؤوسا ...) ، وقوله : (فرماكم بي ، لأنكم طالما أوضعتم في الفتنة ...) ، وغير هذا وذاك من التراكيب التي تمتلئ بالألفاظ الجيدة المنظمة الخالية من الحشو ، ومن الكلمات النابية عن مكانها ، أو الغير مؤتلفة مع الكلمات الأخرى .

والخطبة بما أنها أول خطبة يواجه بها الحجاج أهل العراق ، يتضح أنه كان يعدها الضربة الأولى ، والمواجهة الحاسمة ، والجولة التي ليس بعدها جولات مع أهل العراق ، ولذلك أكثر فيها من عبارات التهديد والوعيد ، والسباب والشتم الصريح .

والحجاج كخطيب لا يعني بظهور المعنى ، ولا يهتم بانكشافه لأول وهلة ، لذا راح يأتي بالألفاظ والعبارات التي تحتاج إلى تأن في إدراكها وفهمها ، مثل اعتماده على المجاز في قوله : (إني لأرى رؤوسا ...) وقوله : (ولقد فررت ...) . والحق أن الخيال قد ساهم إلى حد كبير في صنع أسلوب خلاب يأتي أحيانا في صورة استعارة ، ويأتي أحيانا أخرى في صورة تشبيه ، وهو في كل أحواله يناسب الحالة التي يعيشها أهل العراق ، وهذا يعني أن الخطيب قد حرص على أن يأتي أسلوبه تتوافر فيه كل مقومات الأسلوب القوى المتين .

وهو يستخدم الأسلوب الخبرى للتهديد والوعيد ، ويميـــل إلـــى استخدام أساليب التوكيد بكثرة ، كما فى قوله : (إنى لأرى ...) (وإنـــى لصاحبها) (إنى والله) (وإن أمير المؤمنيـــن) (وإنـــى والله) ، وقولـــه : (قد أينعت) ، (ولقد فررت) ، وقوله : (والله لأحزمنكـــم ...) ، ومعنـــى هذا كله أن الحجاج فى منتهى الصراحة فى كل ما يقول ويفعل .

والخطبة موجزة محددة تتلاءم مع مقتضى الحال ، تعتمد علـــى كثير من ألوان البديع التى تلفت الانتباه ، وتحـــرك الأذهـــان ، وفيـــها توازن بين جملها ، واتفاق فى فواصلها ، وقد أتى الحجاج فيها بالســـجع غير المتكلف ، وأتى كذلك بالفقرات القصيرة ، واقتبـــس مـــن القـــرآن الكريم ما يعينه على أداء مهمته .

كذلك اقتبس من الشعر الجاهلى ، كقوله :

قد لفها الليل بعصلبى ❁ أروع خراج من الدوى

مهاجر ليس بأعرابى

وهو يريد أن يقول إنه عنيـــد وذكـــى ، يجـــوب الصحـــراء لا كالبدوى الساذج الذى يضحك منه .

ولا جدال فى نهاية الأمر فى أن الحجاج كانت لـــه شـــخصيته القوية الفذة، وأنه كان خطيبا مفوها ، تكشف خطبته التى بين أيدينا عـــن شخصيته ، وتحدد ملامحه النفسية ، ولهذا كانت هـــذه الخطبـــة محـــل اهتمام كبير عند القدماء والمحدثين .

وقد استخلص الدكتور محمد طاهر درويش في كتابه : (الخطابة فى صدر الإسلام)[١] مجموعة من الخصائص الفنية للخطابة فى هذا العصر ، وكلها تتمثل فى اللفظ والصورة والمضمون ، والمعنى ، والأسلوب .

يقول : " تكلمنا فى الفصول السابقة عن موضوعات الخطابة واتجاهاتها الرئيسية ، وبينا أن اللون السياسى قد غلب عليها ، وأوضحنا ما لحقها من تطور ، وكيف استطاعت أن تمثل الحياة السياسية والدينية والاجتماعية ، وعرضنا بعض الخطباء والنصوص الخطابية وبقى بعد هذا أن نستخلص من تلك النصوص الخصائص الفنية للخطابة فى هذا العصر ، وهو ما سنتحدث فيه الآن ، وهذه الخصائص تتمثل فى اللفظ والصورة ، والمضمون والمعنى ، والأسلوب .

ففي اللفظ والصورة نرى سهولة الألفاظ والعبارات ، وإشراقها وحسن ديباجتها ، وسماحتها وفصاحتها ، وجمال وقعها ، مع القوة والجزالة والرصانة ، متأثرة فى ذلك بالقرآن الكريم ، متتبعة سبيل السلف الطيبين ، وقد أعانها على هذا مجافاة أهلها البداوة ، وأخذهم بنصيب من حياة الحضارة ، واللغة كائن حى يؤثر فيما حوله ، ويتأثر بما حوله كسائر الكائنات الحية ، وقد تركت الحضارة آثارها فى المظاهر المختلفة لحياة هؤلاء العرب بذلك العصر .

---

(١) (الجزء الثانى) ص٤٢٨ – ٤٣٢ . دار المعارف ١٩٦٧م .

كما نرى إحكام نسج العبارة ، وقوة التآخى بين ألفاظها ، وملاءمتها لما تدل عليه من معنى ، ودقة تعبيرها عنه ، وتصويرها إياه، فى عنفه وشدته ، ولينه ورقته ، وقدرتها على المبالغة فيه عند الاقتضاء وكم رأينا فيما عرضنا من خطب كيف يكون حسن انتظام الألفاظ والجمل الزاجرة الضخمة العنيفة ، القوية الأداء ، المعبرة أدق تعبير عن المعانى المرغوبة ، فى جودة من الصياغة ، وعناية واضحة بحسن الرصف .

وفى هذه الخطب ظاهرة واضحة ، هى انتقاء الألفاظ والجمل انتقاء يتمثل فيه قدرتها على الإفصاح عن شخصية الخطيب ، والدلالة على الحال القائمة ، ولذلك لا نجد فى أكثر خطب الشيعة عنف الألفاظ وضخامة العبارة ، ولا روعة التهويل فى التصوير ، التى تغلب فى خطابة الأمويين ، وتدل على بطش السلطان ، وقهر الطغيان ، ونجد فى خطب الخوارج العبارات المفصحة عن شدة إيمانهم ، واستماتتهم فى الدفاع عن دعوتهم ، ومن هنا ندرك أن قوة الخطبة ترجع إلى أسباب ، أهمها شخصية الخطيب ، وما يستدعيه المقام ، والاستمداد من سطوة السلطان ، أو قوة الإيمان .

ومن الظواهر الواضحة فى صورة الخطابة اللفظية أخذها من كلمات القرآن وعباراته ، فلبست بذلك رداء لا يبلى من الحسن والطلاوة والجدة ، واتجاهها إلى جمال تقسيم الكلام ، فأصابت به غاية محمودة .

وفى المضمون والمعنى يتمثل فى خطابة هذا العصر وضوح المعانى وقربها ودقتها وجدتها واتساعها وعمقها وترتيبها .

وقد كان لها من الأحداث العظيمة المختلفة المتلاحقة ، والدعوات الكثيرة المتعارضة ، ودواعى الحضارة الجديدة ، والظواهر الاجتماعية الحديثة ، التى زخر بها العصر ، وأفسح لها فى المجال - زاد وفير من المعانى الجلية القوية ، الجديدة المتجددة ، يأخذ منها الخطباء ، فشققوا تلك المعانى ورتبوها ، وتوسعوا فيها .

وأعانهم على هذا ما لمسناه بخطابتهم من رهافة الحس ، وصدق الشعور ، وحرارة العاطفة ، وقوة الإيمان ، والحماسة للعقيدة ، فجاءت صادقة ، جارية على السليقة والطبع ، كما يبدو ذلك واضحا فى خطابة الخوارج والشيعة .

وكان فى استجابة الألفاظ لهذه المعانى تكريم لها وصيانة ، فبرزت فى أحسن معارضها ، وجليت فى أجمل ثيابها ، مما ضمن لها التوفيق فى إصابة مواضعها وغاياتها .

وأما الأسلوب : فقد كان مجلى لخصائص كثيرة ، من أهمها القوة ، ووضوح الدلالة ، والمقدرة البيانية الفائقة ، والافتنان فى القول ، اللذان أتاحا لخطيب كواصل بن عطاء أن يرتجل خطبة طويلة بليغة خالية من الراء ، وقدرة الخطابة على تصوير حياة العصر ، حتى لتقرأ فيها تاريخه واضحا صادقا غير مدخول ، بل صارت مصدرا لذلك التاريخ .

وتــرى متانـــة تــأليف الخطبـــة ، وحســـن تقســيمها إلـــــى عناصرها ، وترتيب أجزائها وأفكارها ترتيبا منطقيا ، على نحو ما كــان عند زياد وقتيبة بن مسلم ، وأم كلثوم بنت علـــى ، وغــيرهم ، وهــذه الظاهرة مما جد فى هذا العصر ، وتفترق بها خطابتـــه عـــن خطابــة العصر الدينى . ويتصل بهذا قصرهم الخطبة غالبـــا علـــى موضـــوع واحد ، بعد أن كانت الخطبة تتناول موضوعات مختلفة فى العادة .

وتبدو العناية بالتجويد والتنميق والتأنق فـــى صياغـــة الخطــب واضحة ، إلى ما فيـــها مـــن ضـــروب المـــهارة البيانيـــة ، وبراعـــة العرض ، والقصد إلى إبراز المعانى فى صورة فنية باهرة ، كما تـــرى فى خطب زياد ويزيد بن أبى سفيان والمختار بن أبـــى عبيـــد ، وهـــذه الظاهرة عند خطباء المحافل أوضح منها عند غيرهم .

ومن خصائص الخطابة البارزة زوال الفوارق الأســـلوبية بيـــن خطابة البدو وغيرهم ، فلم نعد نرى فى خطابة الوفــود ذلــك الغريــب النافر من الألفاظ ، ولا تلك الجفوة الخشنة فى الخطاب ، كما كنا نـــرى فى أقوال الوفود على الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولكن الصنعة البيانية قد ظهرت فى محيط الخطابة ، بما يبـــدو فيـــها مـــن رعايـــة الإيقـــاع الصوتـــى ، والقصـــد إلـــى التوافـــــق الموسيقى ، والإكثار من التكرار والترادف ، وهو واضح عند الوعـــاظ والقصاص ، وكان من قبل قليلا فى العصر السالف ، لا يكاد يبين .

وقـد زاد اعتمـاد الخطبـاء علـى التشـبيهات والاسـتعارات العجيبة ، وفشا ذلك فيها ، وعنوا عناية واضحة برسم الصور البيانيـة القوية ، وعرض الرسوم المتحركة وتشخيص المعانى ، وهذا كثير عنـد زياد والحجاج وقطرى .

وقد أخذوا من القرآن اقتباسا وتضمينا واستشـهادا ، وأكـثروا ، وترى هذا واضحا عند الخوارج والشيعة ، وهـو أكـثر وأظـهر فـى الخطابة الدينية ، وقد بلغ بهم ذلك أن جعلوا الخطب كلها قرآنـا ، كمـا فعل مصعب بن الزبير ، واتخذوا المحاجة بالقرآن وآياته مكان الجـدل والبراهين والحجج الخطابية والأقيسة المنطقية ، على مـا نـرى فـى خطب الخوارج .

كما أحسوا التمثل بالشعر ، وأكثروا منه ، قصـد المبالغـة فـى التأثير ، ولأن الشعر كان قد استعاد فى هذا العصر مكانتـه ، واسـترد دولته ، والناس إذ ذاك بين خطيب وشاعر وراوية ، وقد تمثل به عبـد الملك والحجاج وعبد الله بن الزبير وغيرهم ، كما تمثل بـه القصـاص فى قصصهم .

وقد لجئوا إلى ضرب الأمثال بخطبهم ، وقد خطب عبـد الملـك بالمدينة خطبة طويلة بناها على مثل من الأمثال السائرة ، واسـتخدمتها أم كلثوم بنت على فى خطابتها ، وكان العصـر الدينـى قـد أهملـها وأطرحها .

ومن مميزات الأسلوب صدق الأداء ، المفضى إلى إفصاحه عن شخصية الخطيب ، وعن المعانى المقصودة ، وكان للشيعة أسلوب يغلب فيه قوة دفاع المظلومين ، وللخوارج أسلوب يبدو فيه عناد المتحمسين ، وللأمويين أسلوب تتجلى به سياسة الحاكمين ، وبطش القادرين ، وخطب معاوية وزياد والحجاج وعبد الملك على هذا شاهد أمين .

وكان للخطابة عناية بحسن المقاطع والازدواج وتساوى الفواصل والسجع ، على نحو ما نرى عند معاوية وابنه يزيد وزياد وعتبة بن أبى سفيان وعبد الملك والخوارج ، ورعاية للإيقاع الموسيقى وتقصير الجمل ، يهدف ذلك كله ، إلى قوة الوقع وعمق التأثير ، بما تهيأ فيه من الأسباب ، كما يهدف إلى يسر حفظه وروايته ، ولذلك نراه يكثر فى الخطب التى ترسم سياسة عامة .

وقد غلب السجع على خطابة بعض الشيعة ، والتزمه المختار الثقفى ، وبدا فيه الصنعة والافتعال ، وشابه به سجع الكهان والمتنبئين ، بما فيه من أيهام وإبهام و إغراب وأقسام ، كما كثر فى خطب المحافل والوعظ.

وفى خطابة هذا العصر الإيجاز اللائق بصاحب السلطان ، كما ترى عند معاوية ويزيد ، وفيها الإيجاز فى موضع الإيجاز ، تراه عند عبد الملك ، والإطناب فى موضع الإطناب يبدو عند الحجاج وزياد .

وقد تجلى فى هذه الخطب وصحبها بعض دعائم الخطابة ، مـــن حضور بديهة الخطيب ، وقوة عارضته ، ورباطة جأشه ، مما ســـبقت إليه الإشارة فى الكلام عن معاوية وعبد الملك والحجاج وقتيبة ."

وقد تبين لنا مما عرضه الدكتـــور درويـــش أن الخطابـــة قـــد تطورت فى هذا العصر تطورا ملحوظا ، كما تبين لنا كذلك أن القـــرآن الكريم أثر تأثيرا كبيرا فى ألفاظها ، ومعانيها ، وأساليبها .

ثانيا : رسالة عبد الحميد الكاتب إلى الكتاب

عبد الحميد الكاتب :

من أشهر الكتاب فى عصر بنى أمية ، وهو عبد الحميد بن يحيى بن سعيد العامرى ، من موالى بنى عامر بن لؤى ، وهو فارسى الأصل ، ويقول أكثر من ترجموا له إنه من آل الأنبار بالعراق ، وسكن الرقة ، وعرف فى نفسه فصاحة ومهارة بيانية ، وقد طور الرسائل بكثرة التحميدات فى صدر الرسالة ، وبالتوسع فى المعانى ، والعناية بترتيبها ووضوحها ، وقد التحق بديوان هشام بن عبد الملك . ويتولى مروان الخلافة (١٢٧ - ١٣٢هـ) فيصبح عبد الحميد رئيس ديوانه ، وكان وفيا لمروان بكل صنوف الولاء ، وظل يلازمه حتى إذا هزم فى موقعة الزاب فر معه إلى مصر حتى قتلا فى معركة بصير عام ١٣٢هـ[١].

النص [٢]

" أما بعد ، حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة ، وحاطكم ووفقكم وأرشدكم !فجعلكم معشر الكتاب فى أشرف الجهات أهل الأدب والمروءة والعلم ، والرواية . فتنافسوا معشر الكتاب فى صنوف العلم والأدب ، وتفقهوا فى الدين ، وابدءوا بعلم كتاب الله عز وجل ، والفرائض ، ثم العربية ، فإنها ثقاف ألسنتكم ، وأجيدوا الخط ، فإنه حلية كتبكم ، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها

---

(١) انظر شوقى ضيف (تاريخ الأدب العربى) (العصر الإسلامى) ص٤٧٣ .وانظر كذلك صبح الأعشى للقلقشندى جـ١ص٨٥ وزارة الثقافة والإرشاد القومى . وانظر أيضا الفهرست لابن النديم ص١٧٠ .

(٢) انظر شوقى ضيف (تاريخ الأدب العربى) (العصر الإسلامى) ص٤٧٣ .وانظر كذلك صبح الأعشى للقلقشندى جـ١ص٨٥ وزارة الثقافة والإرشاد القومى . وانظر أيضا الفهرست لابن النديم ص١٧٠ .

ومعانيها ، وأيام العرب والعجم ، وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك معين لكم على ما تسمون إليه بهممكم ، ولا يضعفن نظركم فى الحساب فإنه قوام كتاب الخراج منكم، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سفيها ودنيها وسفساف الأمور ومحاقرها ، فإنها مذلة للرقاب مفسدة للكتاب ، ونزهوا صناعتكم عن الدناءات واربؤوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه أهل الجهالات ، وإياكم والكبر والصلف والعظمة فإنها عداوة مجتلبة من غير إحنه ، وتحابوا فى الله عز وجل فى صناعتكم ، وتواصوا عليها بالذى هو أليق بأهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم .

المفردات :

ثقاف : مقوم   قوام الشيء: عماده   الخراج : الجزية

سنيها : عظيمها   الصلف : التطاول   إحنه : حقد

الدراسة :

لا ريب أن عبد الحميد الكاتب هو أبلغ كتاب العصر الأموى ، فلم يعرف الكتاب رسالة نهجت نهج رسالة عبد الحميد فى أفكارها ، فقد وجهها إلى فئة من الكتاب ومن ثم ففكرتها جديدة .

وهى تشتمل على نصائح تصلح للكتاب وغيرهم ، فهو يطلب منهم أن يتحلوا بحلى العلم والأدب ، وانتقل بعد ذلك إلى التصريح بأن عليهم أن يوسعوا ثقافتهم فى الدين والفرائض حتى يقفوا على أحكام الشريعة إلى آخره .

والرسالة مقسمة إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

مقدمة :

وتبدأ من قوله : "أما بعـــد" وتنتــهى بقولـــه : "أهـل الأدب والمروءة والعلم والرواية ".

صلب الرواية :

(عدة الكاتب) وهو يبدأ من قوله : " فتنافسوا يا معشر الكتـــاب " إلى قوله : " والنبل من سلفكم ".

خاتمة الرسالة :

وهى بعد ذلك ، وهى تمثل دعـــاء للكتـــاب بـــأن يحفظـــهم الله ويرعاهم . والرسالة المذكورة تمثل ثقافة عبد الحميد ، كما تمثل أسـلوبه المتطور الـــذى يقـــوم علـــى تنويـــع العبـــارة ، إذ ضمـــن المقدمـــة الدعاء ، واختار أسلوب الأمر فى حديثه عن عدة الكاتب ، ثم لم يلبـــث أن عاد للدعاء فى الخاتمة .

وأسلوب عبد الحميد الكاتب بدون ريب أسلوب متطـــور حســـن الصياغة ، فألفاظ الرسالة خالية مـــن الغريـــب ، وتراكيبـــها متماســـكة الألفاظ ،متآلفة فيما بينها ، ليس فيها حشو أو ابتذال ، وليس فيها تعقيـــد يمنع من فهم المعنى .

ومن المسلم به أن الكاتب قد طور الرسائل بكثرة التحميدات فـــى صدرها، وبالتوسع فى المعانى ، والعناية بترتيبها ووضوحـــها ، ومـــن الظواهر اللافتة للنظر فى أسلوبه شيوع الترادف الذى هو نـــاتج عـــن تطويل الرسائل ، وكثرة استخدام حروف العطف ، واستخدامه للســـجع المناسب الخفيف ، وتنويع العبارة ما بين دعاء وأمر وتحذير .

ومما جاء به مما يجمع عددا من الكلمات لمعان متقاربة قولـــه : (وحاطكم ، ووفقكم ، وأرشدكم) ، وقوله : (أهـــل الأدب ، والمـــروءة ، والعلم) .

ومن السجع الذى جاء به قوله : (فتنافسوا يا معشر الكتاب فـــى صنوف الأدب) ، وقوله : (فإنها مذلة للرقاب مفسدة للكتاب) .

والرسالة تحمل جميع خصائص عبد الحميد الكاتب التى تمـــيز بها فى أسلوبه ومعانيه ، فهو يزين الرسائل بحلي مـــن آيـــات القـــرآن الكريم ، ويأخذ يقتبس من أسلوبه ، ومـــا فيـــه مـــن روائـــع المعـــانى والصور.

يضاف إلى ذلك أنه عنى بتجويد العبارة وتفخيمها ، والاعتمـــاد على السجع دون أدنى تكلف ، وعلى حسن تقسيم الجمـــل ، وتـــرادف عباراتها، وتوازنها الموسيقى .

ومعانيه متسلسلة ، جيدة الروابط ، تسير فـــى نســق منطقـــى رائع، ومجمل هذه الخصائص تشكل فنا راقيا ، ومستوى ممتـــازا فـــى الكتابة، الأمر الذى جعل الشعراء يضربون الأمثال ببلاغة عبد الحميد .

والرسالة تشبه المقالة كتبها عبد الحميد الكـــاتب لبيـــان مكانـــة الكتاب وأثرهم فى توجيه الحكام والقادة ، والتعبير عن شـــرف الكتابـــة ورفعة شأنها ، ويدعوهم إلى الأخذ بالأسباب فى القيام بواجبهم بأمانـــة والتحلى بالتفقه فى الدين ، والنظر فى كتـــاب الله ، ثـــم إتقـــان اللغـــة العربية، وإجادة الخط ، والاطلاع على التاريخ والأيام ، والاستفادة مـــن الشعر ، وتعلم الحساب ، وما إلى ذلك .

والكاتب يأتى فى رسالته بالأسلوب الخبرى لفظـــا ، الإنشـــائى معنى ، لأغراض بلاغية يريدها ، ويأتى بأســـلوب القصـــر لإفـــادات متعـــددة، ويـــأتى بـــالتفصيل بعـــد الإجمـــال ، كمـــا يـــأتى بـــالتعليل والتشبيه ، ويكثر من أسلوب الأمر الـــذى غرضـــه البلاغـــى النصـــح والإرشاد ، مما يعكس سعة ثقافته ، وبعد نظره فـــى شـــؤون السياســـة والحكم .

والرسالة تعكس ما أصاب هـــذا اللـــون الكتـــابى مـــن تطـــور وتفنن ، كما تشير إلى اتساع رقعة الدولة الإسلامية ، وتنظيـــم ديـــوان الرسائل ، وتشير كذلك إلى ازدهار العلوم الدينية والعربية .

الخاتمـــــــــــــة

الحمد لله ، والصلاة والسلام علـــى رســول الله ، وعلـــى آلـــه وأصحابه ومن والاه .

وبعد :

فهذه طائفة من عيون الشعر العربى فى عصر بنى أمية قدمناهـــا فى ثوب جديد ، يطابق فى أسلوبه وطرائق عرضــــه أحــدث المنــاهج وأفضل الطرق التربوية ؛ وغايتنا من ذلك أن يتمرس قارؤهـــا التفكــير السليم ، والاســـتنتاج الجيــد ، وإبــداء الــرأى ، ومـــن ثـــم الإبـــداع والابتكار ، والنقد الموضوعى .

ولكى يكون الكتاب متكاملا فى تحقيق ما نهدف إليه ، وضعنا بين يدى كل موضوع ما يعين على الفهم ، فشرحنا الألفاظ والتراكيب التـــى لا غنى عن معرفتها ، وناقشنا ما فــــى النـــص مـــن أفكـــار وصـــور بيانية ، وغير ذلك مما يعين فى علوم العربية بشتى ألوانها ، ويمكن مـــن فهمها وتذوقها ، وإدراك ما أودعه الله فيها من أسرار وبلاغة .

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل ،

أ.د / طلعت صبح السيد

فهرس الموضوعات